

روايات د. نجيب الكيلاني

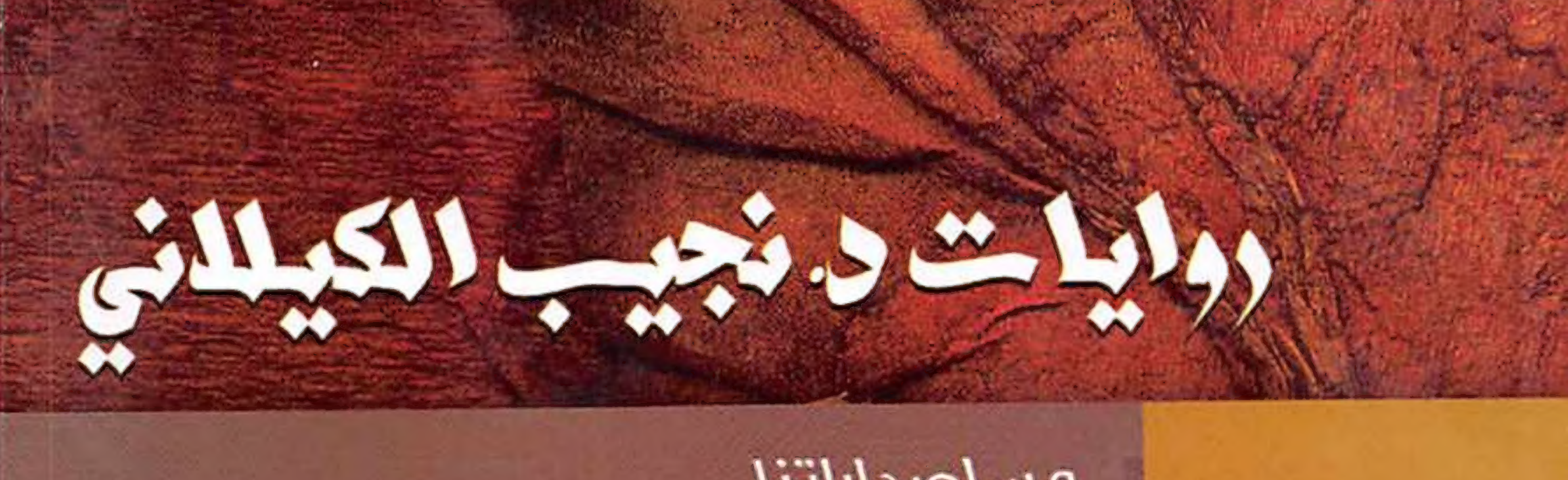
من روائع الأدب الإسلامي

اعترافات عبد المتجلي

A.Motagalli's Confessions

Dr. Naguib Al Keilany

عبد الرحمن



من إصداراتنا

الذين
يحترقون
People who are burning





الصحوة
ALSAHOH
دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 00202239 18
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني
daralsahoh@g ll.co

Design by Abdul Rahman Magdy

اعترافات عبد المتجلي

[قصة طويلة]

د. نجيب الكيلاني

الطبعة الأولى للناشر

١٤٢٤هـ - ٢٠١٣م

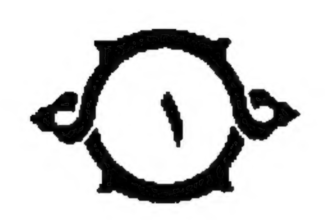
رقم الإيداع: ١٠٥٩٦/ ٢٠١٢

الترقيم الدولى:

977- 255-353-8



للنشر والتوزيع
٥ عطفة فريد - من شارع مجلس
الشعب - السيدة زينب
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧١٨
تليفاكس: ٠٠٢٠٢٢٣٩٢٧٧٦٧
daralsahoh@gmail.com



هذه كارثة كبرى بكل المقاييس، والحادثة التى أعلن عنها حقيقة.. نعم حقيقة تفقأ عين الشمس.. والناس يضحكون، وشر البلية ما يضحك.. اللصوص يسرقون الجيوب، ويجردونها من المال والمعادن الثمينة.. وحتى البطاقات الصحية والشخصية والعائلة والمستندات، ويسرقون الدجاج والحيوانات، ويختلسون، ويتفنَّنون فى وسائل النصب والدجل، ويعتبرون ذلك فى البلد خفة يد وشطارة.. وحقًا أيضًا.. أليسوا محرومين مقهورين مستغلين؟؟ وهناك من يسرقون الأضواء والشهرة والسلطة والانتخابات.. أصبح الأمر مألوفًا فى زماننا، وكأنه العرف السائد.. ممكن أن يحدث ذلك!! وقد لا يثير غرابة.. لكن الوضع هذه المرة يختلف..

الخبر يقول: «ويسرقون الونش».

ضرب «عبد المتجلى القصاص» كفًا بكف، وصرخ وقد شحب وجهه الأسمر، واتسعت عيناه فى دهشة:

- «كيف يسرقون الونش؟؟ إن ذلك غاية الوقاحة والفجر والاستهتار».

قال أحد الفلاحين، وقد توقف عن غزل الصوف:

- «ما هو الونش؟؟».

- «آلة كبيرة لرفع الأحمال الثقيلة.. ضخمة كوابور الحرث.. «كالكراكة» التى نطهر بها طين الترعة.. ولها ذراع طويلة.. وتصدر هديرًا كماكينة الطحين.. الونش لا يمكن سرقته أو إخفاؤه.. تلك هى القضية».

وانتشر الخبر فى أنحاء القرية الصغيرة المنزوية فى وسط الدلتا، أهل «كفر أبو سالم» يتحدثون عن سرقة الونش، بين ساخر وذاهل وغير مكترث، وعبد المتجلى الذى قرأ الخبر فى الصحف يجرى هنا وهناك، ويصور الحادثة بصورة تجعل منها مأساة قومية لها دلالاتها الخطيرة.

قال : «إنه تحد خطير لإرادة الأمة» .

ضحك حضرة العمدة «الحاج إبراهيم صوان» ، وعلق :

- «المهم أن عبد المتجلى وجد قضية ينشغل بها عنا» .

وقالت أمه العجوز الست «رمّانة» :

- «أنت مغرم بالبحث عن المتاعب» .

قال لها فى إصرار :

- «سأسافر إلى القاهرة للبحث عنه» .

وهتفت أخته بدرية :

- «إنك تعطى الناس فرصة للسخرية منا» .

- «الحمقى وحدهم هم الذين يفعلون ذلك» .

- «ليس لنا بالونش المسروق أى علاقة . . » .

- «إنه مصيرنا . . » .

- «الدنيا ممتلئة باللصوص» .

- «لكنهم فى العادة لا يسرقون الأوناش» .

- «بل يسرقون ويخفون البشر . . هل الونش أعز عليك من الآدميين؟ . . ».

- «أنتم فى واد وأنا فى واد آخر . . القضية خطيرة».

- «وأخطر منها أن تهمل عملك وتسافر . . ».

هز كتفيه فى ضيق وقال :

- «عطلة بدون مرتب . . ».

أردفت بدرية :

- «ثم تعود خاوى الوفاض».

- «سأقلب الدنيا».

- «أخاف أن تنهد على رؤوسنا . . ».

- رؤوسنا ما زالت أسفل . . نحن فى القاع لا نخشى السقوط».

عبد المتجلى يعمل موظفًا بمجلس القرية، ليس له غرفة أو مكتب، كما أنه لا يعرف توصيفًا لوظيفته تلك التى

يتقاضى عليها راتبًا شهريًا محدودًا، فمؤهله دبلوم الثانوية الصناعية قسم برادة ولحام، ولكنهم لا ينتدبونه إلا فى القليل النادر من الأعمال الكتابية، وحتى هذه لم يدعه أحد إليها منذ أكثر من عامين، والسبب أنه يدقق فى كل ورقة يكتبها، أو توقيع يزيلها به، ويتوقف كالجبل لا يتزحزح إذا ظن أن هناك شبهة تزوير أو تحايل، وبعض الظن إثم، ولهذا ضاق به رئيس المجلس ومجلس الإدارة، وفضلوا ألا يستعينوا به فى شىء، وقال المسئول الكبير له:

- «اذهب.. لا نريد منك سوى التوقيع فى سجل الحضور والانصراف.. وستأخذ مرتبك بالكامل آخر كل شهر..».

هاج وماج، وتحدث عن البطالة المقنعة، وعن الأجر الحرام الذى يتقاضاه دون عمل، وخطب خطبة عصماء عن الضمير والانتماء الوطنى، والقيم العريقة، وتعاليم الله، لكن كلماته قوبلت بعاصفة من الضحك الممزوج بالاستهجان، وفكر أن ينتقل إلى قرية مجاورة لعله يجد

فرصة للعمل والإنتاج، لكن أخباره ومواقفه تسبقه إليها، فتفشل المساعى . . لقد كان بمجلس القرية خمسة موظفين فى أوائل الستينات واليوم فيه مائة وخمسة، والواقع أن الذين يعملون فعلاً لا يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة . . يقول عبد المتجلى الذى لم تتح له فرصة التعليم فى معاهد الأزهر:

- «أموالنا حرام . . طعامنا حرام . . حياتنا نجاسة».

أطلقوا عليه بالأمس «عبد المتجلى» المجذوب!! والمجنون!! وبالأمس أنعموا عليه بلقب جديد «عبد المتجلى الونش» أو «عبده الونش» قياسًا على الفيلم السينمائى الشهير «حنفى الونش» برغم اختلاف الأسباب والظروف.

ذهب إلى رئيس المجلس، وقدم له طلبًا بعطلة شهرين بدون مرتب، ضحك الرئيس، وخلع نظارته الشمسية الوجيهة المستوردة، ثم اضطجع على مقعده الوثير، وقال:

- «وما حاجتك إلى عطلة . . أنت دائمًا مجاز».

- «أريد أن يكون تحركى فى إطار القانون».

ضحك الرئيس حتى بدت نواجذه المتسخة بالنيكوتين، ثم أشعل سيجارة «مارلبورو» وقال:

- «إن وعدى لك هو القانون».

تمتم عبد المتجلى فى ألم:

- «يبدو أن القانون هو الآخر فى عطلة طويلة..».

كاد الرئيس ينفجر وهو يقهقه بصوت عال، وأردف والرذاذ يتناثر من فيه، والعرق يندى وجهه المحتقن، وعنقه الغليظ:

- «نعم فى عطلة.. لكن.. بمرتب».

وأصر عبد المتجلى على أن يكون كل شىء فى إطاره الرسمى، وتم له ما أراد لمدة شهر واحد فقط، وخرج وهو أكثر إصرارًا وعزمًا على المضى فى سبيله، لا بد أن يسافر، وأن يبحث عن الونش المفقود مهما كلفه ذلك من تضحيات، لسوف يبيع نصيبه فى البقرة التى يمتلك نصفها كى يدبر أمره وأمر بيته، الجميع يسخرون من أفكاره

الجنونية، وحماسته الغريبة، حتى أمه وأخته بدرية، والناس جعلوا من الموضوع مادة ثرية للتندر، وهو لا يعبأ بكل ذلك، عندما يقتنع فلن تستطيع قوة أن تحرفه عن غايته، إن له منطقه الخاص، وله أحكامه التى يمليها عليه ضميره..
ولم يكن ييأس بسهولة، لقد فشل ألف مرة، أصبح حليف النكسات والهزائم، حدث ذلك عندما اصطدم بالعمدة بالنسبة للإتاوات التى يفرضها على الفلاحين، وأيضًا تعرض لمساءلات قانونية كادت تودى به إلى السجن، عندما عجز عن إثبات وجود اختلاسات فى ميزانية المجلس، وكذلك عندما أوسعوه ضربًا على قدميه بالفلقة فى المركز بسبب تصديه للإدارة المماثلة لتجريف الأراضى الزراعية وتخريبها، لكن تلك المرة استطاع أن يوقف التجريف فى «كفر أبو سالم»، فانتقل تجار الطين إلى قرى مجاورة..

الشيء المهم أن الناس جيمعًا يحبونه؛ لأنهم مؤمنون بصدق توجهاته، وحسن نواياه، وأنه لا يسعى من أجل نفع ذاتى، أو غرض ملوث، ومن ثم كانوا يشفقون عليه، بعضهم يقول: «عبد المتجلى» ينفخ فى قربة مقطوعة..

وآخرون يهمسون: «إنه يتصدى لمفاسد أكيدة، لكنها أكبر من طاقته بكثير، وهو ضعيف لا حول له ولا طول»، وقال أحد الحكماء فى القرية: «إنه صوت أصيل يجب أن يظل مدويًا.. ويجب أن نظل نسمعه.. حتى ولو لم يأت بنتيجة».. الأطفال فى القرية متعلقون به بصفة خاصة، إنه يعطيهم دروسًا فى الحساب والإملاء بالمجان، ويروى لهم القصص الشائقة السلسة، ويحفظهم قصار السور، وبعض آيات القرآن، ويعلمهم الوضوء والصلاة.. على الرغم من انشغاله بأعباء زراعة الفدان الذى تملكه الأسرة فى «حوض القتيل»، وهو يبعد عن القرية بثلاثة كيلو مترات، وهو يقضى وقت فراغه- وما أطوله- هائمًا فى القراءة.

قالت له أمه «رمانة»:

- «لو تزوجت يا عبد المتجلى لما حدث ذلك كله».

همس فى اقتضاب:

- «لتتزوج بدرية أولاً..».

قبل سفره إلى القاهرة بيوم تصادف أن يكون ذلك اليوم يوم جمعة، وانتهز فرصة الحشد بعد الصلاة، ووقف فيهم خطيبًا:

- «الونش هو المستقبل.. إنهم سرقوا المستقبل.. نحن فى عصر التكنولوجيا.. أعرف أنكم لا تعرفون معنى هذه الكلمة... التكنولوجيا هى الرخاء والأمن والاستقرار والعدل.. من أجل هذا سأسافر.. لا أطلب منكم سوى الدعاء.. إنها رحلة لوجه الله.. يجب أن نعرف حقيقة ما يجرى.. مَنْ الذى سرق الونش؟؟ وسرق معه أحلامنا.. يجب أن نكشف القناع، ونعرف الخونة، ونسلمهم لحبل المشنقة إلا إذا تابوا وأنابوا..».

وساد لغط فى المسجد، ووقف الحاج إبراهيم صوان العمدة وصاح بأعلى صوته:

- «الخطابة فى المساجد يا عبد المتجلى ممنوعة إلا بأمر من وزارة الأوقاف.. الوحيد الذى يحق له الخطابة هنا يا عبد المتجلى هو الخطيب الرسمى للمسجد.. اجلس أو صلِّ السُنَّة يا حبيبى.. هل فهمت؟؟».

قال عبد المتجلى وهو يكظم غيظه :

- «حتى الكلام يا حضرة العمدة أصبح محرمًا؟» .

- «لكل مقام مقال يا عبد المتجلى . . » .

- «وأنا أتحدث عن السرقة . . وهى حد من حدود الله . . أليس كذلك؟ . . » .

- «دع العلم لأهل العلم يا جاهل . . » .

سادت غمغمة تنبى عن ضجر مكبوت ، ران الصمت ، شحب وجه عبد المتجلى ، وحاول أن ينطق ، لكأنما أصيب بالخرس ، همّ بفتح فمه ، تحرك لسانه وشفتاه ، لكن الكلمات ظلت حبيسة عصية ، شعر برأسه يدور ، خيوط العرق تسيل على وجهه النحاسى الغارق فى البراءة والطيبة ، والمشهد كله بدا كجزء من شريط سينمائى متوقف ، وعيون المصلين تنظر ، والعمدة واقف كجذع نخلة عجوز ، الشرر يتطاير من عينيه ، وصفق إمام المسجد ليقطع الصمت ونادى بأعلى صوته :

- «قوموا إلى بيوتكم يرحمكم الله» .

كان الجدل محتدمًا بين الخلق وهم يتزاحمون عند باب المسجد، على الوجوه ترتسم ملامح الرفض والغضب، الكلمات هى الأخرى تتزاحم وتتشابك؛ وأشعات النظرات تتقاطع، ومع ذلك فقد كانت الحركات والخطوات بطيئة برغم توترها، وشعور عام يسود الجميع بأن عبد المتجلى قد أهين، وأنه طيب القلب، لا يضمر شرًا لأحد، ولا يستحق أن يعامل بهذا الطريقة، وخاصة أن المسجد قد استعمل لأغراض كثيرة كالدعايات الانتخابية، وتعليمات حضرة العمدة للفلاحين، والإعلان عن الجنائز ومواعيدها، والتوعية السياسية والصحة وغيرها.. ماذا لو تركوا عبد المتجلى ينفس عن كروبهم؟

قال الحاج «إسماعيل المغربى» وهو فلاح وتاجر أقمشة وحافظ للقرآن الكريم، ومعروف عنه المرح وخفة الروح والذكاء أيضًا:

- «قالوا لجحا: أين بلدك يا جحا؟؟ قال التى فيها امرأتى.. مسكين عبد المتجلى إنه لم يتزوج..».

●●●

استدعى حضرة العمدة عبد المتجلى عقب صلاة العصر، أراد أن يلقنه درسًا جديداً، على الرغم من ثقته بأن عبد المتجلى لا يستوعب الدورس جيداً، لكن الأمر هذه المرة يختلف، إنه يتحدث عن الخونة والخيانة والمشنقة، وهذا أمر يمس الأمن العام، ويدخل فى إطار التطرف والحركات الهدّامة، ولو نما إلى علم المسئولين أمر كهذا لعنفوا العمدة أشد التعنيف . . «هذا المجنون يهرف بما لا يعى، ولا يقدر العواقب، ولسوف يضعنى فى موضع الحرج والاتهام بالإهمال . . صدق من قالوا عن قريتنا إنها «كفر الكلام» نعم . . فالناس بضاعتهم الكلام . . والفعل قليل . . ولذا فإن «كفرنا» أفقر بلد فى المنطقة كلها إن لم يكن على مستوى محافظة الغربية بأسرها . . إذا لم يعقل عبد المتجلى الأمور فسوف أكسر رأسه . . ».

- «هذا هو الإنذار الأخير يا عبد المتجلى» .

- «وأنا أرفض الإنذار» .

«لمصلحة مَنْ؟؟» .

- «لمصلحة البلد . . أين أتكلم إذن؟» .

استشاط العمدة غضبًا، وقال:

-«فى الصحافة.. فى التليفزيون.. فى الإذاعة.. فى مجلس الشعب.. فى بيتكم الله يخرب بيتك.. كفى ما نحن فيه من كرب..».

فكر عبد المتجلى أن يرد له الصاع صاعين، لكن شيخ الخفراء وثلاثة معه يحيطون به كأسوار الزنزانة، ولشيخ الخفراء بالذات كف غليظة طرشاء- كما يقولون- ولا يتقن شيئًا أكثر من إتقانه لتنفيذ أوامر العمدة، إذا هوت تلك اليد على قفاه، فستورثه عار الأبد.. لقد ضربوه فعلاً قبل ذلك فى المركز، لكن على قدميه فى فلقة..

غامت عيناه بالدموع، بدت المرئيات من حوله وراء حاجز زجاجى معتكر، أشباح معتمة تتكلم وتتحرك، شعر فجأة بيد تربت على كتفه، أغمض عينيه ثم فتحتهما، فرأى العمدة يبتسم ابتسامته الثعبانية، ويقول:

- «البلد فيها حركة اعتقالات يا عبد المتجلى.. ألم تسمع عنها يا ابنى؟؟».

طأطأ عبد المتجلى رأسه فى حسرة وتمتم بصوت جريح:

- «سمعت».

- «لو سمعت لعقلت وحذرت..».

- «لم أنضم لحزب طول حياتى.. ورؤيتى محدودة بالقرية.. تغيرت لهجة العمدة حينما عاد يقول فى حزم»:

- «وما شأن القرية بالونش؟».

- «إنه دلالة على ما قد يتهددنا جميعًا..».

تنهد العمدة فى ملل وقال:

- «قل ما شئت خارج «كفر أبو سالم»، وفى القاهرة قبل أن تبحث عن الونش يجب أن تبحث عن أخصائى للأمراض النفسية..».

●●●



كانت بدرية تشعر جبلاً يجثم على صدرها، فتكاد تختنق، أمَا يكيفها ما تعانى من الفراغ الممل القاتل؟ إنها تعيش منذ أن حصلت على الثانوية التجارية فى انتظار خطاب القوى العاملة، وقد مر عامان ثقيلان، دون أن يتحقق الأمل، وخطيبها المدرس بالابتدائى لم يستطع حتى اليوم أن يدخر ما يكفى بالكاد لفرش غرفة أو غرفتين، وأخوها عبد المتجلى عاجز عن أن يجد مصدراً إضافيًا لزيادة الدخل، ومع ذلك فهى تتحمل صابرة، لكن الشىء الذى لم تعد تطيقه هو تصرفات شقيقها الوحيد، إن أهل (الكفر) ينظرون إليها ساخرين، وبعضهم يلعنها صراحة ويؤكد أنه مصاب بنوع من جنون العظمة أو الهوس أو الفصام، هم لا

يعـرفـون الفـرق بين هذه وتلك، ولا يهـمـهم أن يعـرفـوا، لكنهم يرددون أحكامهم على عبد المتجلى بدون حساب أو تدقيق، ولم تعد بدرية تستطيع أن تتكيف مع هذه التعليقات الهامسة أحيانًا والعالية النبرات أحيانًا أخرى، وهى لا تدرى ماذا تفعل، وتألمت حينما عاتبها خطيبها «أشرف سليم» وأبدى عدم ارتياحه لأفكار وتصرفات «عبد المتجلى»، إنها متأكدة ألف فى المائة من ذكائه وإخلاصه، لكنه لا يحسن اختيار المواقف، طاقاته فى حاجة إلى «منظم» كالذى يضعونه فى أنابيب الغاز، قد تستغرقه أمور تافهة أو ثانوية ويهمل كبريات القضايا، ويا ليته يعترف بذلك، بل يصر إصرارًا جازمًا بما يعتقد أنه أولويات من وجهة نظره، فمثلاً قضية الرشوة التى نشر عنها فى وزارة الصناعة أهم لديه من نقص مياه النيل التى تهدد المستقبل الزراعى فى القرية، وقضية القروض البنكية التى هرب بها رجال أعمال وعصابات تؤرق ليله، وتتعس نهاره، وينسى إزاءها الآفات التى تكاد تقضى على محصول القطن، وانخفاض سعر الدولار وتأثيره على قيمة الجنيه المصرى

تدفع فى نفسه موجات من الحزن والأسى، وعلى الرغم من أنه لم يمسك بدولار واحد فى حياته، وخسائر القطاع العام ومهازله وعدم اقتناعه بما يجرى من فساد توشك أن تدفعه إلى الجنون، ومع ذلك فإن الشباب المثقف من أهل القرية يتفهمون وجهة نظره وإن كانوا لا يتحمسون لفعل شىء ملموس من أجلها، والفلاحون عاتبون عليه؛ لأنه يعرف أن مشكلة «علف الماشية» الذى شح وارتفعت أسعاره أولى بالاهتمام والمتابعة من التصنيع الثقيل، وإدخال التكنولوجيا المتطورة، وكان «عبد المتجلى» يكرر التوضيح لوجهة نظره، وهى أن حل التناقضات لا يتم إلا بالبحث عن الجذور، وتعمق الأسباب، ويذكرهم دائمًا بأنه تصدى للعمدة عشرات المرات، وضُرِبَ فى المركز بسبب ذلك، وأنه تحدى المسئولين فى أزمة السماد والمبيدات والسوق والسوداء وأزمة الدقيق والسكر والزيوت المدعمة وغير ذلك من هموم (الكفر) ومآسيه، بل إنه ما زال على استعداد لأن يعاود الكرة، ويتحمل العنت كلما دعت الضرورة إلى ذلك، ومن منطلق اهتمامه بكبريات الأمور، فقد هزته سرقة الونش هزًا

عنيفًا، وأورثته قلقًا ما بعده قلق، وأحزانًا ليست بعدها أحزان، فهو يعتقد أن الفساد يخرج له لسانه، ويهزأ منه، ويصفعه على قفاه، إن سرقة الونش فى رأيه احتقار للرأى العام، وإهدار لقيم الفضيلة والعمل والطهارة، وهى إساءة إلى العمل السياسى والاقتصادى فى الدولة، وإنهاك لآدمية الإنسان، وسحق لأحلامه وتطلعاته، وتلويث لشرفه وكرامته. . لا بأس أن تسرق دراجة أو دجاجة أو حتى سيارة، أما أن يسرقوا «الونش» فى وضح النهار، فمعناه أن الأمة بأسرها على وشك الانهيار. . إن القضية فى نظر عبد المتجلى ليست بالبساطة أو التفاهة التى يتصورها الناس، ولا بالخصوصية التى تجعلها بين أيدى رجال الشرطة وحدهم، كما أنه لا يمكن الاقتناع بقيدها «ضد مجهول» لا بد من البحث عن هذا المجهول حتى يصبح معلومًا، ولم يتم ذلك إلا فى إطار جهد شعبى، ووعى عام مشترك.

وقف وسط غرفته وحيدًا، وأخذ يصرخ: «أيها الناس، العدو أمامكم، والبحر من خلفكم، أنتم محاصرون فتحركوا وإلا غشيكم موج من فوقه موج، وأقبلت عليكم

الظلمات بقضها وقضيضها، أنتم نائمون والونش يسرق فى وضح النهار، مَنْ يدرى؟؟ أيمكن أن يكون السارق إسرائيل أو أمريكا، أو رأس كبيرة ذات سلطة ونفوذ؟ إنهم يمتلكون القنبلة الذرية.. ونحن ننحر الذبائح فى العيد الكبير، ولا يأكل منها إلا المحظوظون.. تسقط الاشتراكية والرأسمالية، والفردية والتعددية، أيها الناس.. الطوفان.. الطوفان».

دخلت أمه العجوز مذعورة وهتفت والدموع تغرق وجهها:

- «لقد أصابك شر يا ولدى.. ارحمنى وقم إلى فراشك.. إن السهر سيقتلك..».

احتضنها فى حب، ضمها إلى صدره ضمة أودعها كل اللهفة والحنان، تمتم: «لشد ما أصبحت نحيلة!! الذئاب يسرقون طعامك كما سرقوا عمرك وعمر أبى.. وكما سرقوا الونش الضحية..».

قالت وهى تنهنه:

- «تعود إلى الونش مرة أخرى؟».

- «لن أتركه ما حييت..».

- «إنك يا ولدى ترمى بنفسك إلى طريق ممتلئ بالضباب ليتك تفيق إلى نفسك».

جال بنظراته المرهقة عبر الغرفة الكالحة، وقال بثقة وإخلاص يحسد عليهما: «إنه قدرى.. أحيانًا أجد نفسى مدفوعًا بقوة قهرية لا فكاك منها، أحاول أن أبطئ أو أتوقف فلا أستطيع.. يسمونه القصور الذاتى.. كلما تحدث شيخنا عن الجبر والاختيار فى العقيدة يكاد عقلى أن يذهب، فأنا حتى الآن لا أعراف الحدود الواضحة بين ما هو إجبارى وما هو اختيارى.. لكننى واثق أن عدالة الله وجزاءه تنهض على حرية الإرادة..».

لم تكن أمه على دراية بما يقول، إنه من زمن يدمن قراءة الكتب، ويتبحر فى علوم ليست من شأنه، إن جهلها يحجب عنها الآفاق التى يحلق فيها، وفوق كل ذى علم عليم.

- «أنا غير مقتنعة يا ولدى، وإن كنت لا أفهم ما تقول».

اندفعت بدرية إلى الداخل، أمسكت يده بأناملها المرتجفة، وقالت ضارعة:

- «إذا عثرت على الونش، فهل ستحضره لنا؟».

- «لا . . سأرده لأصحابه».

- «إنه مملوك لشركة رأسمالها ملايين كما يقول الناس».

- «ليكن . . الحق لأهله».

- «ومَنْ كلفك بذلك يا عبد المتجلى؟».

- «ضميرى . . ».

تركت يده، نظرت إلى الوجه الأسمر الشاحب المرهق، والجفون المسهدة، وقالت:

- «الناس هنا لا يفكرون إلا فى مصالحهم . . ».

- «النمل والنحل أفضل . . ».

- «لو لم يفعلوا لأكلوا التراب».

- «لو لم يفعلوا يا بدرية . . لجاءتهم الأرزاق من فوقهم ومن تحت أرجلهم . . » .

تدخلت العجوز :

- «دعيه يا ابنتى» .

ووجهت إليه قولها : «عقلك فى راسك» .

هز رأسه : «واعْرف خلاصك . . وأنا عرفت» .

●●●

بالأمس التقى به الحاج «إسماعيل المغربى» ، وقال له مداعبًا :

- «أنت تتحدث عن التكنولوجيا يا عبد المتجلى ، مع أنك لم تزل تروى الأرض بالطنبور والشادوف ، وتشقها بالمحراث ، كما كان يفعل أبوك . . وكما كان يفعل الفراعنة . . » .

تفكر عبد المتجلى برهة ، ثم ابتسم وقهقه عاليًا :

- «وأنت على حق يا عم إسماعيل . . » .

واستطرد وهو يلوح بسبابته اليمنى :

- «أريد أن يكون الكومبيوتر حقًا لكل مواطن» .

أمسك الحاج تهامي بكتفه وقال وهو يرمقه بنظرات جادة :

- «أتمزج الجد بالهزل؟؟» .

- «كل الجد» .

- «إننى لا أصدق ما تطلقه من شعارات» .

- «لماذا؟؟» .

- «الرغيف أولاً» .

- «هذا مقولة ساقطة . . نرددها دائمًا . . فالرغيف موجود، والله لن يحرمنا من الحد الأدنى لحياتنا الحيوانية . . والكمبيوتر لن يمدنا بالأرقام والمعلومات فحسب، ولكن سيثمر خبزاً وفاكهة . . وشيكولاتة أيضًا . . » .

وتجمع وقتذاك عدد من الشباب، وكانوا يضحكون من أعماقهم، ويمدون حبال الحوار معه، حتى ينعموا بمزيد من

الضحك ، وهو يجادلهم بكل صدق وجد سواء أكانوا يمزحون أو يجدون ، إنه يجد متعة فى أن يجيب ، ويتحدث عن يقين الدارس المتعمق المتبحر ، فالقضية فى ذهنه أشد وضوحًا مما تصورون ، وإن كان البعض يظن أنه ليست هناك قضية حقيقة على الإطلاق ، وهم لا يجدون ما ينفقونه على تدخين الحشيش ، ولهذا أدمنوا الكلام حتى أصبح نوعًا جديدًا من المخدر لا يقع تحت طائلة القانون الجنائى ، وإن كان يدخل أحيانًا فى باب الانحراف السياسى ، وهنا علّق الحاج إسماعيل قائلاً :

- «أصبح الكلام- فى بعض الأمور- أشد خطرًا من المخدرات . . أنا شخصيًا إذا خيرت بين قضية رأى وقضية مخدرات لاخترت الأخيرة . . لماذا؟؟ لأن قضايا المخدرات يستطيع المحامى فيها أن يصول ويجول ، فيجد الثغرات ، ويبطل الأدلة ، ويربك الشهود ، وكثيرًا ما يحصل على البراءة . . أما فى قضايا السياسة فالمتهم مجرم وإن ثبتت براءته . . هل سمعتم عن القوائم السوداء . . إنها شىء آخر غير السوق السوداء . . إذا لم يكف أهل قريتنا عن الإتجار

فى الكلام فسوف تسحقهم الدبابات، وتدكهم الطائرات. . وسيصيبهم ما أصاب أهل كرداسة فى عام ١٩٦٥م أى قبل النكسة بعامين. . ».

وارتشف الحاج إسماعيل من كوب الشاى الثقيل، ثم قال:

- «عبد المتجلى عبقرى من نوع خاص، لكنه كثيراً ما يبدد طاقته الثمينة هباءً، الفرق بين مخه ومخ اليابانى هو الفرق فى الإدارة الجيدة التى تقوم على أساس علمى ومنطقى».

•••

يقول الحاج إبراهيم صوان العمدة الداهية: «الجنون فنون. . ولولا أنى أريد للبلد أن ترفه عن نفسها، وتخفف من أعبائها، وتنفس عن همومها الأزلية، لما سمحت بهذا العبث الذى يقارفه عبد المتجلى، إنه أشبه ما يكون «بالبلياتشو» الذى يتقافز على مسرح السيرك فيضحك الناس. . ألا يمكن أن نعتبر ما يفعله ملهاة كتلك التى تقدم على مسرح القطاع الخاص؟؟».

•••

الشيخ «سمعان الطوخى» إمام وخطيب المسجد رجل فى الخمسين من العمر، ملتزم بالتعليمات الرسمية، ويتلو الخطب التى تبعث بها وزارة الأوقاف بدون إضافة أو حذف، وعلى الرغم من تبرمه بذلك إلا أنه- بعد طول تجربة- أيقن أن ذلك هو طريق السلامة والاستقرار، فالخطب عنده أمر ونهى، ويركز على أصول العقيدة وأعمدتها الخمس، ويدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وليس لديه أدنى استعداد للمساءلة أو النقل أو الجزاء، وهو يعلم أن زملاء له قد أخرجهم فساد الحال فى البلاد عن الهدوء والكياسة، فسيقوا إلى المنافى أو المعتقلات، والعاقل من اتعظ بغيره، وسلك طريق الحكمة والموعظة الحسنة، وهو يفهم الحكمة والموعظة فهما مرتبطان بالنهج الذى تسير عليه إدارة شئون البلاد، عندما سألوه عن رأيه فيما جرى لعبد المتجلى فى المسجد على يد العمدة هز رأسه محوقلاً، وقال:

- «هذا بيت الله.. وهو مكان للعبادة والإنابة..».

وحينما كان يجلس أمام بيته على أريكة خشبية، مغطاة بحصير صغير، جاءه أحد طلبه المدارس وسأله :

- «ألم يكن المسجد يا مولانا أيام السلف داراً للعبادة والقضاء والبيعة ومناقشة مشاكل المسلمين . . » .

شرد الشيخ ببصره إلى بعيد وتمتم :

- «كان . . وكانوا» .

لم يفهم الطالب ألغازه، وأدرك الإمام ذلك، فأخذ يشرح :

- «قال عبد الملك بن مروان على المنبر : ألا تنصفوننا يا معشر الرعية؟؟ تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر، ولم تسيروا فى أنفسكم ولا فينا سيرة رعية أبى بكر وعمر؟؟ أسأل الله أن يعين كلاً على كل . . » .

وصمت الشيخ برهة ثم قال :

- «الحلال بيّن والحرام بيّن» .

هتف الفتى فى ثورة :

- «لقد اختلط علينا الحلال بالحرام، والفساد الضارب يفسد الرؤية . . ».

أطرق الشيخ ولم يعلق، وعاد الفتى يقول:

- «أى قانون يمنع عبد المتجلى من إبداء رأيه؟؟».

وابتسم الشيخ وقال:

- «إن أهل القرية البسطاء المساكين لا تهمهم قضية الونش . . ».

- «السرقة وباء تفشى فى كل الأنحاء . . ».

- «فلنتحدث عن السرقة إذن».

- «كما نتحدث عنها من ألف عام؟؟ لا . . لا . . من الضرورى أن نربطها بقضايا معاصرة . . كالونش مثلاً . . ».

قال الشيخ وهو يطوى الحصير مستأذنًا:

﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٤].

●●●



لم يعد يتصور أن بالعاصمة رجالاً ، فجاء من أعماق الريف حاملاً سيف الإرادة الخرافية ليبحث عن المفقود، ويفضح المستور، ويكشف عن وجه المدينة القبيح، وعينها العوراء، بعد أن يغسل الأصباغ والأهداب الصناعية، ويزيل الشعور المستهلاة المستوردة.

كان يحمل تحت إبطه الأيسر ملفًا متسخًا فيه كل ما كتبته الصحافة عن الونش المفقود، منذ البداية إلى أن تم حفظ التحقيق بأمر النيابة، مر بتمثال «مصطفى كامل باشا»، وتوقف عنده طويلاً، إنه لا يؤمن بإقامة النصب والتماثيل والأزلام (هو لا يعرف معنى كلمة الأزلام)، لكنه يشعر أن هناك علاقة وطيدة قديمة بينه وبين مصطفى.. نعم مصطفى

هكذا بدون إضافة ألقاب، فالإخوة الحميمة تسقط تلك الرسميات والشكليات. . قال له: «عبد المتجلى يقرؤك السلام يا مصطفى. . أنا وأنت غرباء فى هذه الدنيا. . كما أننى فى مثل عمرك. . تشبثت بالخلافة فى زمن الضباب والانهيار والضعف والهزيمة. . وسافرت إلى فرنسا بقصيدة عصماء تطلب منها أن تقف إلى جوار مصر حتى تتحرر من بريطانيا. . أنا مثلك أحمل شمعة الأمل الواهنة فى ليل داج عاصف. . غير أنى لم أكتب الشعر. . ومت فى شبابك مسمومًا. . أو حسرة. . لا أدرى!! ويبدو أننى على الدرب أسير. . لم أذهب إلى باريس. . فالقرار هنا. . ولهذا سافرت إلى الداخل إلى المحروسة. . أم الدنيا. . القاهرة. . وأنا لا أفكر فى النتائج، إن ما يهمنى هو الحركة وقول الحق. . قالت لى أمى ما دمت متوكلاً على الله فتذكر عند نزولك «المحروسة» أن تزور أهل البيت وتبلغهم عنى السلام. . وهكذا يا مصطفى وجدتك فى طريقى بالمصادفة. . فخذ منى ومنها السلام. . ففيك من أهل البيت شىء من إيمان وتضحية وصبر ونور. .

فى ضيافة الحسين كان يشعر بالابتراد بعد هجير الشوارع وغبارها الخانق، وضوضائها المربكة، توضأ وصلى، ثم شعر بالجوع، وجد يداً مجهولة تمتد إليه، وتسقط فى حجره شيئًا، حاول أن يتفحص اللفافة فشم رائحة اللحم المشوى والأرز المتبل، جرى لعابه، وعاد يبحث عن اليد المجهولة، لكنها غرقت فى الزحام، «رزق ساقه الله إليك يا عبد المتجلى . . كُلْ، واهنأ واحمدْ ربَّك، وتأكد أن العناية الإلهية ترعاك . . ».

المحروسة ليست فساداً كلها، لكنها تطوى قلبها الحنون على الكثير من الخيرات والحنان . . لكن كيف يضيع الونش على الرغم من ذلك؟ بعد أن أكل ذهب إلى الميضأة وشرب حتى ارتوى، وبعد الصلاة شعر بثقل رأسه، وارتخاء جفونه، فرقد على السجاد الأعجمى النظيف، وسقط فى نوم كالغيبوبة، هو لا يدرى أطال به الوقت أم قصر، لكن يداً هزته، فتح عينيه كالحالم «مَنْ؟؟ ماذا؟؟؟» عندما أفاق تمامًا رأى عينين تنظران إليه بحدة لا تتفق وطبيعة الجو الروحانى المشبع بالعطر السماوى، وجاءه الأمر واضحًا:

- «يمنع النوم منعًا باتًا فى المسجد . . » .

فكر هنيهة ثم قال :

- «الكلام ممنوع . . والنوم ممنوع . . هل هذا بيت الله أم بيتكم؟» .

رد الرجل فى ضيق :

- «ليس المسجد وكالة بدون بوّاب» .

هو يعرف أن «الوكالة» مصطلح يطلقه الفلاحون على المكان الذى توضع فيه الحمير بالمدينة ، ومن عادة الفلاح الذى كان يسافر على حماره أن يدفع لصاحب الوكالة قرشين إيواء حماره ، ثم يعود بعد أن ينجز أعماله لأخذه ويرجع إلى القرية . . آلمته كلمة «الوكالة» قال :

- «احتشم يا رجل . . هذه إهانة؟؟» .

جذبه من كتبه فى غلظة وهدر :

- «إذا لم تلتزم أحضرت لك العسكرى» .

- «هل هم هنا أيضًا؟؟» .

- «لحفظ النظام وتأديب أمثالك».

- «أنا جئت لغاية نبيلة . . ».

- «للتسول طبعًا . . أنا أعرفكم . . ألا تستحيى؟؟».

جمع أوراقه، وأمسك بحذائه، واستغفر الله، وخرج . . مدينة الملايين لا يعرفه فيها أحد، وهو بالتالى لا يعرف أحدًا، يسمع عن موظفين من أبناء (الكَفْر) يعيشون فى القاهرة، لكنهم قلّما يأتون إليه إلا إذا مات قريب لهم من الدرجة الأولى، وغالبًا ما لا يأتون . . أخذ يتفحص الوجوه . . لكأنه فى جزيرة «واق الواق» التى يحدث الأطفال عنها، لا أحد يهتم بأحد، ولا يفشى واحد منهم السلام، والفتيات الجميلات يبتسمن بدون سبب واضح، والنظرات الوقحة تلاحقهم، وكلمات بذيئة تتطاير هنا وهناك، يصعب معرفة مصدرها، والسيارات تتسابق فى جنون، وشرطى المرور يقف جامدًا كالتمثال، وكأنه ينام واقفًا، وفى يده قلم وأوراق . . لا أحد يتكلم عن الونش إطلاقًا . . لم يسمع هذه الكلمة منذ أن دخل القاهرة

غازيًا . . يبدو أن الناس قد نسوا المأساة . . معذورون . . فالمآسى يأخذ بعضها برقاب بعض . . والحىُّ أبقى من الميِّت . . إنهم يمرون على مصطفى كامل كل يوم، ولا يقرأ أحد عليه الفاتحة، أو يلقى السلام، أو يحفظ أبيات الشعر التى كتبها لفرنسا . . بل لم يعودوا يذكرون قولته المأثور: «لا حياة مع اليأس، ولا يأس مع الحياة . . ».

وقعت عيناه على رجل طيب ملتحٍ يلبس جلبابًا أبيض:

- «أين يا سيدى الطريق إلى السيدة زينب؟».

- «سائق التاكسى سوف يأخذك إلى مسجدها . . ».

- «وإذا سرت على الأقدام؟؟».

- أصبت بضربة شمس . . ».

- «لا تخف علىّ، فأنا تحت لهيب الشمس من قديم . . ».

ومضى يحث الخطا إلى «أم العواجز» الطاهرة كما أوصته أمه، شعر بالتعب المضنى وهو يحط رحاله قرب

الضريح، الفرحة تتألق فى روحه المكلومة، كان العرق يبلل ياقة قميصه البنى اللون الذى لم يعرف الكواء فى تاريخه الطويل، وكان يشعر أن ملابسه الداخلية مبتلة لزجة، لكم تمنى أن يستحم، ولِمَ لا؟ أخذ يسأل عن دورة المياه، وصل إليها بعد مشقة، لكنها كانت مكتظة والناس فى داخلها يتأخرون كثيراً، همس الحارس فى أذنه، وفهم أنه سوف يجد المرحاض على الفور إذا دفع خمسة قروش. لا بأس فإنه لم يعد يحتمل، حتى قضاء الحاجة أصبح له ثمن، وأين؟ فى أقدس الأمكنة، المهم أن أمنيته تحققت ودخل، وتخفف مما يكرب بطنه، ثم خلع ملابسه، وأخذ يصب الماء صبًا ليس معه صابون لا بأس، جاءه صوت الحارس غاضبًا:

- «يا للمصيبة!! ماذا تفعل؟».

- «استحم..».

- «هل هذا وقته؟ لم نتفق على ذلك..؟

وأخذت الدقات على باب المرحاض تتوالى، لكنه لم يكترث، حاول أن ينهى العملية بسرعة، وعند خروجه

أمسك الحارس بخناقه قائلاً: «ادفع عشرة قروش وإلا . . ».

معنى ذلك أن النقود التى معه لن تكفى إلا لفترة قصيرة. وقد تنفد فى قضاء الحاجة والاستحمام . . «هذه المحروسة كل شيء فيها يباع ويشترى، ولا مكان للفقراء إلا العمل أو السرقة . . أيمكن أن يكون ذلك هو سبب سرقة الونش؟».

أضاءت فى رأسه فكرة، قال للحارس:

- «ألا تعرف لى مكانًا آوى إليه لبضعة أيام؟؟».

- «العشرة قروش أولاً . . ».

أخذها الرجل وقال بصوت عالٍ:

- «مدد يا أم العواجز . . »، ثم استطرد بصوت خفيض:

- «هل معك بطاقة شخصية؟؟».

- «بالتأكيد . . وكيف أؤدى واجبى الإنسانى بدونها؟».

على سطح البيت العتيق الذى بنى من أيام المماليك وجد ضالته المنشودة فكانت خيراً وبركة عليه، فالحارس أتاح له

فرصة ذهبية بافتراش الأرض، والتحاف السماء، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الحارس كان يأتى إليه كل يوم، ويغدق عليه خليطًا من الخيرات التى يتصدق بها زوار المسجد.. خبزًا.. وكعكًا.. وحلوى.. وفاكهة.. ولحومًا وأرزًا أحيانًا.. «لشد ما حيرتنى أيتها المحروسة!! لك ألف وجه ووجه.. وفيك كل التناقضات.. إن فى أزقتك الرطبة القديمة ما يرد الروح، ويجلو صدأ القلب، ويعيد الثقة إلى النفس.. أيتها المتقلبة.. الحانية القاسية.. الجميلة الصبيحة.. المقبلة المدبرة.. يومًا ما سأجد المفتاح الذى يفض مغاليق قلبك أيتها العرب..».

●●●

وأخيرًا ذهب إلى المكان الذى سرق منه الونش، وقاسه بنظراته، يريد أن يرسم خريطة دقيقة للموقع كما يفعل رجال التحقيق والمباحث عادة، لكن المكان يموج بالحركة والضجيج، وهناك أوناش جديدة، تعمل بجد واجتهاد، وفى طرف الميدان وجد «كشكًا» صغيرًا لبيع السجائر والبسكويت والحلوى، تقف به امرأة ممتلئة، عليها مسحة

من وسامة، يبدو أنها فى العقد الرابع من عمرها. . حث الخطا نحوها، وطلب زجاجة مياه غازية، أخذ يشرب «الكولا» الباردة بقدر كبير من التلذذ، ونظراته تمسح المكان للمرة العاشرة، ثم يعود ليخطف نظرة على البائعة. .

فجأة، صك سمعه صوتها:

- «من أى داهية أتيت؟».

- «الغربية. .».

- «تعنى فلاح. .».

- «لماذا التجريح؟».

- «أحب الصراحة. . هل تضايقت؟».

- «أعرف أنك تمزحين. .»

ابتسمت، ارتاح قلبه، بشرى خير، لقد دعت له أمه بأن يوفقه الله، ويفتح له القلوب والأبواب المغلقة، وهو لم يخرج إلا جهاداً فى سبيل الله، البحث عن الونش قضية إنسانية وقومية ووطنية، بل ودينية فى المقام الأول.

- «موظف».

- «نعم، فى مجلس القرية.. أتقاضى مرتبًا بدون عمل».

قالت فى استنكار:

«تكية!! ونحن هنا نطفح الدم.. ندفع للعسكرى.. والبلدية ومديرية الإسكان بالإضافة إلى تحرير المخالفات والمحاضر.. تمنيت أن أهاجر..».

- «إلى أين؟؟».

- «فى أى داهية..».

وتوافد الزبائن، انشغلت عنه، هى تعد الشاى أيضًا لبعض العاملين فى «مترو الأنفاق»، ولديها أنواع من الجبن الإفرنجى المغلف بالورق المفضض والمذهب، وخبز إفرنجى أيضًا، وعاد يتفحص المكان، جاءه صوتها:

- «أما زلت هنا؟؟ توكَّل على الله».

- «وأين أذهب؟؟ إن عملى الأساسى هنا».

نظرت إليه فى دهشة، أى عمل لكاتب فى قرية نائية

هنا؟ ظننت أنه بدأ يلعب بذيله شأنه شأن الكثيرين الذين يداهمونها كأسراب الذباب، سددت إليه نظرات محذرة :

- «اسمع . .» .

- «لا تسيئى بى الظن، فأنا رجل أبحث عن الحقيقة؟» .

- «الحقيقة!!! سلم لى على الحقيقة» .

- «أقسم لك، أريد أن أعرف من سرق الونش . .» .

فتحت الباب الجانبى «للكشك»، واقتربت منه :

- «مخبر تحريات؟؟» .

- «أبدًا والله . .» .

استطاع بعد جهد جهيد أن يقنعها بما اعتزمه، كانت قناعتها على مضض، فقد شابها بعض الشكوك، ولم يشفع له إلا كونه فلاحًا ساذجًا، تستهويه حكايات الأطفال والأساطير .

- «اسمك عبد المتجلى . . أهلاً سى عبد المتجلى . . تترك الجنة، ثم تأتى إلى «المحروسة» يا محروس لتلقى بنفسك فى الجحيم؟» .

كانت طفلة صغيرة تنام على «كليم» مهترئ بجوار المحل، واستيقظت فجأة تبكى، فهرولت إليها البائعة تضمها إلى رصدها، وتربت على رأسها فى حنان، وتناولها شطيرة معبأة بالطعمية . . عمرها ثلاث سنوات . . اسمها «صابرين» مات أبوها فى حادث وهو يدفع عربة اليد الممتلئة بالخضراوات . . ».

عرف من «أم صابرين» أنها رأت الونش لآخر مرة فى الساعة العاشرة من مساء ذلك اليوم المشهود، كان يقف إلى جواره رجل عملاق ضخم الجثة يرتدى جلبابًا شعبيًا، ومعه ولد ميكانيكى لا يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، ملابسه ملطخة بالشحم الأسود، ووجهه كذلك، عادت فى صباح اليوم التالى، فلم تجد الونش، ولكنها وجدت حشدًا من الناس والسيارات وآلات التصوير، أم صابرين تعتقد أن هذا اليوم كان يوم عيد بالنسبة لها، فقد باعت كميات هائلة من علب السجائر والمشروبات الغازية والشاى الطازج والمأكولات، وكانت تدعو الله من كل قلبها أن يسرق اللصوص كل يوم «ونشًا».

قال عبد المتجلى وهو يمعن التفكير :

- «أتعتقدين أن الرجل كان مخبراً؟؟» .

- «هكذا تدل هيئته وحركاته . . أنا أعرفهم . . » .

- «إن بعض الظن إثم . . » .

وذهب «عبد المتجلى» إلى القسم الذى باشر التحقيق فى البداية ، واستطاع أن يدفع مبلغًا لحضرة الصول كى يطلعه على التحقيقات الأولية ، أقوال السائق الخاص بالونش ، وزملائه والمهندس المسئول ، وأقوال بعض من تصادف مرورهم بالمنطقة وتطوعوا للشهادة ، بل وجد أقوالاً لأم صابرين أيضًا ، ولشرطى الليل المكلف بالحراسة ، والخفراء ، إن الأمر لا يختلف كثيراً عما نشرته الصحف ، بل إن لديه ثبتًا بالنكت والرسوم (الكاريكوتيرية) التى رسمها عمالقة ذلك الفن عند حادثة الونش المسروق ، إلى أن حفظ التحقيق ، وأوعزت السلطة للرسامين كى يتجاهلوا هذه القضية برمتها ، هذا شىء لم يخبره به أحد ، لكنه شائع ومعروف أو متواتر حسبما يقول الشيخ الطوخى إمام

المسجد . . إن عبد المتجلى يجد نفسه تائهًا فى غابة مملوءة بالأشجار الضخمة والأشواك والحيوانات الضاربة ، غابة مظلمة برغم سطوع الشمس الحارقة ، التى تخترق أشعتها المتقد . .

كان مستلقيًا على ظهره فوق سطح البيت المملوكى العتيق الذى بنى منذ مئات السنين ، وكان يستعيد السطور التى قرأها فى ملف التحقيق بالشرطة ، باحثًا عن ثغرة ينفذ منها إلى دنيا الحقيقة ، ها هى «المحروسة» تتحول مرة أخرى إلى لغز محير يستعصى على أكبر العقول ، لكن المجرم دائمًا يترك أثرًا ما فى مكان ما .

تذكر الذاكرين من عشاق «الحسين» وهم يترنمون بالأماديح النبوية ، والابتهالات الزكية ، ويتطلعون بأرواحهم إلى الآفاق العليا الطاهرة فرارًا من دنس الأرض ، وقذارة الواقع المرير ووجد نفسه يغنى مثلهم :

أنا رايح للحسين

أشكى له بلوتين

آه.. وأقول له يا حسين

ياللى جدك النبى

ياللى جدك النبى.. النبى.. النبى

وجاءه صوت فى الظلمة يعرفه :

- «عليه الصلاة والسلام. . »

- «هل جئت يا بيومى» .

- «منها وإليها. . » .

- «معك طعام. . » .

- «وجبة شهية. . طعمية وبصل وطماطم وأجبان مختلفة وأقراص صنعت من القمح، وعجنت باللبن. . » .

كان القمر يتألق فى السماء الصافية، لم يكونا فى حاجة إلى إضاءة المصباح الكهربائى، هذه العتمة -كما يعتقد عبد المتجلى- تريح الأعصاب المتوترة، إنها مهدئ بالمجان، ربما لو علمت السلطة بقيمتها لصنعت لها عدادات مثل عدادات النور. . الحمد لله. . وجلسا يأكلان، قال بيومى الرفاعى :

- «لماذا لم تتزوج؟؟».

قال عبد المتجلى ساخراً:

- «لم تتقدم حتى الآن أى من بنات الحلال لطلب يدى»

وضحكا، فقال بيومى:

- «الرجل هو الذى يتقدم».

- «الأمر يختلف يا صاحبى إذا كان فقيراً.. الفقير يُطلب (بضم الياء) ولا يطلب (بفتحها).. يؤمر ولا يأمر.. أما الغنى فإن ثقته بنفسه تدفعه لأن يتقدم.. آه عرفت الحب.. لم يزل عبيره الخالد يضوع فى حبنات قلبى على الرغم من أنها ذهبت بعيداً مع من تزوجت..»

وتذكر عبد المتجلى شيئًا فقال:

- «وأنت لِمَ تعيش وحدك؟».

حاول أن يراوغ فقال:

- «ما هى أخبار الونش؟؟».

- «السماء ملبدة بالغيوم، ورياح الخماسين تهب فى عنف، وأنا كالريشة التى يُلعب بها..».

قهقه بيومى وهو يقول :

- «السارق معروف» .

- «مَنْ؟؟» .

قالها عبد المتجلى فى لهفة :

رد صاحبه بعد أن ازدرد اللقمة الكبيرة :

- «حاميها حراميها» .

- «إنك تقوى ذرائع الشك فى نفسى» .

- «إنهم يسرقون صندوق النذور . . » .

وأكمل عبد المتجلى :

- «فى معظم الأمكنة ، ويقدمون للمحاكمة ، وفى النهاية يحصلون على البراءة . . أما أمثالنا فمدانون دائمًا . . » .

رفع بيومى يديه عاليًا وهتف :

- «يحى العدل . . يحيا العدل . . » .

ثقلت بطن عبد المتجلى كما ثقلت رأسه، مدَّد جسده الضامر على البلاط البارد، ووضع البقجة والحذاء تحت رأسه، وتمتم: «يجب أن ننام حتى نصلى الفجر فى الجماعة الأولى، ثم إن لدى مقابلة مهمة جداً فى الغد، وعلى ضوئها سيتحدد موقفى نهائيًا من قضية الونش».

●●●

ونام...

الوادى الأخضر تغطيه الزهور وعناقيد العنب والسنابل، الأطفال يمرحون ويرددون الأهازيج، لابسين الحلل الزاهية المطرزة بالجواهر الثمينة والذهب تضىء ملامحهم بالسعاد.. وأنهار من عسل ولبن، والجارية التى تجلس تحت الشجرة الوارفة، متلفعة بشالها الحريرى الأخضر، واضعة قدميها فى ينوع صغير من المسك تبتسم له.. تشير إليه بيدها الجميلة.. إنها هى.. بشحمها ولحمها وشعرها الأسمر المندل على الكتفين.. هى فى انتظاره.. لم تتزوج.. كذب من قال إنها تزوجت.. عذراء قادمة من الجنة.. لم يطمثها إنس ولا جان..

قال لها : - «أنت؟» .

قالت له : - «أنت؟» .

جلسا يقطفان زهور الحب و النشوة القدسية ، نامت على صدره ، تحرج حرجًا بالغًا : «لا بد أن نعقد القران أولاً ، حتى تكون حياتنا حلالاً ، وحبنا طاهرًا مصفى . . » ، قالت له : «هل نسيت؟ ها هو العقد . . دائمًا تنسى . . كلما انشغلت بأمر من أمور الدنيا غرقت فيه ، وغصت إلى القاع . . لقد أنساك الونش حبنا ورباطنا المقدس . . » .

هو فى حيرة ولا يستطيع أن يستوعب الموقف بصورة كاملة . . تمتم ﴿ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ ﴾ [الكهف : ٦٣] ، مسحت على جبينه الأسمر بيدها الناعمة الندية المعطرة ، وتمتمت :

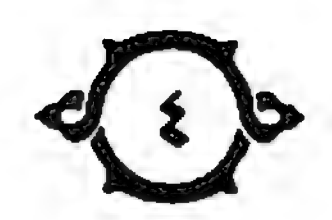
- لا تحفل بالشيطان . . تجاهله ، فيصغر ويتضاءل . . كلما ازددنا حبًا ، ازداد هلعًا وضمورًا . . سألها عن بيتهما أشارت إلى كوخ أنيق شاهق البياض يتوسط الخضرة ، خفق قلبه ، سمع أنغامًا لناى بعيد . . وهو يعشق الناى من قديم

على الرغم مما فيه من أنات ونواح . . أحيانًا يجد للحزن صدى وارتياحًا فى نفسه . . الحزين السعيد . . يبدو أن السعادة لا تتحقق إلا إذا خالطها قدر ولو قليل من الحزم . . إنه ملح السعادة . . قال لها : «إنى ظامئ» . قالت : «سأسقيك ماء عينى . . سلمت عيونك يا حورية . . لك روحى وحياتى وكل ما أملك ، وإن كنت لا أملك مالاً . . تقولين إن قلبى أغلى كنوز الدنيا ، إذن فأنت منى وأنا منك . . لقد تمازجنا إذن . . و أصبحنا كيانًا واحدًا . . أتسمعين الناى . . نعم هى تسمعه ، وأرى التأثر باديًا على وجهها الجميل . . يكفى أن أنظر . . وأنظر . . حيث لا زمان . . مقاييس السعادة من نوع آخر . . وهيا نذهب إلى بيتنا الجميل . . » .

أذّن الفجر ، أفاق عبد المتجلى على وكزة من بيومى ، فتح عينيه فوجد السماء والقمر الغارب ، والسطح الأجرب . . وتمتم :

- «سامحك الله يا بيومى . ليتك تركتنى حتى قيام الساعة . . » .

●●●



سرواله الأرزق أصبح بلون الطريق المتسخ الذى لا تعيره البلدية اهتمامًا وحذاؤه البنى اللون فى الأصل أصبح طينيًا، عفن الرائحة، وتوشك قدرة احتماله أن تنهار، إن ترميمه وتلميعه يحتاج إلى مال ووقت، وحتى لحيته أصبحت عبئًا، إن الحلاق اشترط عليه دفع المبلغ أولاً، جنيه كامل، وهو الذى كان يستمتع بحق الحلاقة فى القرية بنصف كيلة قمح سنويًا، وفى الأعياد فقط يدفع نصف ريال، عيب القاهرة الكبير أنها لا ترحم فى الأسعار، وقلوب أهل الحرف كافرة بالمجاملات والصدقات. والصحف ليس فيها إلا الأمانى والأحلام، والصور والأرقام، والخطط الخمسية والعشرية وبرامج التخطيط والتغنى بحلاوة المستقبل.. لطالما عاش فى

المستقبل من قبل، وحلم به، وها هو الماضى والحاضر يذهبان. . كانا مستقبلاً فى فترة من الفترات، ثم ماتا. . لكن المستقبل يولد كل يوم. . والذى حلمنا به لم يولد بعد. . لشد ما يخاف أن يموت ذلك الغد- الأمل قبل أن يولد.

قضى عبد المتجلى أسبوعًا كاملاً يبحث ويحقق يدقق، علم من أم صابرين أن سائق الونش المفقود الأسطى حنفى كان صديقًا للمرحوم زوجها، وأنهما كان يسهران كل مساء حول «الجوزة» لتدخين الحشيش «اللعنة على الحشيش وأيامه، كان يعود مهلهلاً مسطولاً، ضحكه كالبكاء، ونومه أرق، ومزاجه طفولى، وكان يخرج إلى عمله، ويدفع أمامه عربته المثقلة بالخضراوات، يغنى كالسكارى. . يتحرك وهو نصف غائب عن الوعى، يخطئ فى عدد النقود والوزن، ابتسامة عابثة من امرأة ماكرة تجعله ينسى ثمن البضاعة. . لم يكن يشعر بأدنى حرج أو تأنيب للضمير، على الرغم من أننى كنت أسلقه بألسنة حداد، كان يكتفى بتهديدى بالطلاق، وأخيرًا نفذ تهديده، طلقنى إلى الأبد حين مات. . رأيته يرقد أمام العربة ملوثًا بالدماء، معفرًا بتراب الطريق. .

شاحبًا هائمًا فى ملكوت لا أعرفه . . تدفق شلال الحزن الهادر فى قلبى . . بدا أمامى مسكينًا مظلومًا . . ضحية . . بكيت وبكيت . . أدركت لحظتها أننى كنت أحبه . . وأننى محتاجة إليه بشدة . . لكنه رحل وترك لى صابرين» . . كانت تجفف دموعها . . وتستقبل الزبائن . . وتتكلم . . وتنوح . . وتعطى للطفلة طعامًا . . وتفرز النقود، تعودت أن تتعامل مع الواقع والحزن والدموع والناس بدون أن تضيع وقتها سدى، لكن عبد المتجلى برغم الصدع الذى أصاب قلبه من أجلها اهتم بحكاية السائق، وأخذ يعد ملفًا له، ثم طلب منها أن تعرفه به، وأصبح السائق وعبد المتجلى صديقين . . وخلال ثلاثة أيام أو أربعة، كانا يتساقيان الشاى، ويمزحان ويتبادلان النكت . . آخر نكته . . أغلب النكت عن الحشيش والحكومة . . وفوجئ عبد المتجلى بالسائق يدعوه لسهرة معهم كى ينسوا الدنيا وما فيها من أمور محزنة تغم النفس، وتسمم البدن على حد قوله .

قال عبد المتجلى : «لكنى لم أدخن الحشيش، ولا حتى السجائر أبدًا . . إنه رجز من عمل الشيطان»، فأفهمه

«الأسطى حنفى» أنهم لن يرغمـوه على ذلك، ويكفى أن يجلس معهم فتنتقل إليه عدوى «الانبساط الفيروسى»، وعندئذ سيضحك أكثر مما يضحكون، ويسعد كما لم يسعد من قبل، ثم إنه لن يخسر شيئًا، إن لم يستفد وجبة دسمة لعلها تكون الكفتة والكباب، فالحشاشون قوم كرماء، ولديهم حصانة قوية ضد أوجاع الهم والغم والكولستيرول والأفكار السوداء، تفكر عبد المتجلى قليلاً:

- «ألا تخافون أن يداهمكم العسكر؟».

ضحك الأسطى حنفى المتولى ضحكات قصيرة متتابعة وقال:

- «إنهم منا».

- «كيف؟؟».

- «بعضهم يشاركنا الجلسة. . ألسنا القاعدة الشعبية؟».

- «لهذه الدرجة؟».

- «بل هم من مباحث المخدرات نفسها».

- «يا للمصيبة!!».

- «يا بنى.. أولاد مزاج.. لو كنت ممن بيده السلطة لخصصت دعمًا أو على الأقل علاوة للمساكين مثلنا..».

ووجد عبد المتجلى نفسه منجذبًا إلى الذهاب، إنه لن يصل إلى الحقيقة إلا من خلال المعاناة والمخاطرة، وماذا يهم إذا كان واثقًا من نفسه، متمكنًا من توجيه إرادته وسلوكه الوجهة التى يريد، وفى سبيل الونش، ومعرفة السر يهون كل شىء بعد ذلك، حضرة العمدة الحاج إبراهيم كان يردد دائمًا تلك المقولة التى حفظناها ونحن ندرس تاريخ أوربا «الغاية تبرر الوسيلة».

صلى العشاء فى مسجد السيدة زينب، ولم ينس ركعتى السنة، وصلاة الشفع والوتر وختم الصلاة، واستأذن بيومى وذهب إلى كهف صغير فى زقاق من أزقة القلعة، وحينما جلس وسط الحلقة لم يثر اهتمامًا يذكر بعد أن رحبوا به، وقدموا له التحيات، سرعان ما أصبح واحدًا منهم، بدون إجراءات أو طقوس خاصة، إنهم هنا يحتقرون الروتين والبيرقواطية، ولا يعبأون بشىء..

شجاعة تفوق كل تصور، لكنها تمتزج بالاستهتار أو عدم المبالاة.. لا خوف من شيء، التفكير فى الغد- على ضوء الواقع- مأساة لا يطيقون الخوض فيها بجدية، يسدلون أستاراً ضبابية أرجوانية تحجب عنه كوابيس المستقبل.. ويتغنون مع أم كلثوم:

غد بظهر الغيب واليوم لى

وكم يخيب الظن فى المقبل

ولست بالغافل حتى أرى

جمال دنياى ولا أجتلى..

«أم كلثوم» كانت - وما زالت- هى المتحدث الرسمى بأشواق الجماهير وأحزانها، حتى ولو غنت «ريّان يا فجل»، وهم يطربون لأغانيها عن الحب والعذاب والهجران، كما يطربون لمدائحها الحلوة فى مديح المصطفى ﷺ، ويستمعون أيضًا فى طرب لأغانيها الوطنية الرسمية لأنهم- مهما كان الأمر- يحبون أرضهم وشعبهم..

انعقدت السحب الزرقاء، وتوالت على المسرح أشباح

البهجة بأردية فضفاضة حريرية . . زرقاء . . وحمراء . . وصفراء، وفجأة قال الأسطى حنفى سائق الونش :

- «أخوكم الأستاذ عبد المتجلى قدم من بلد صغير على شمال السماء يبحث عن الونش المفقود . . » .

وانفجرت الضحكات، وعلت القهقهات، وبعد فترة ذهول قصيرة وجد عبد المتجلى نفسه يشاركهم المرح الجنونى، وقال الرجل الذى «يرص» الحشيش والمعسل :

- «أبينك وبين الفقيد صلة رحم» .

وصهلت الخيول مرة أخرى، حتى فاضت الدموع، وانهمر العرق، ووجد عبد المتجلى نفسه يندمج فى الجو وحاول أن يرد :

- «نعم . . فأنا خريج الصنايع . . متخصص فى البرادة . . أنا والونش أخوان تربط بيننا أواصر التكنولوجيا» .

وتناثر الرذاذ والسعال عبر الموجة الثالثة من الضحك القاتل، ثم قال عمدة الجلسة :

- «علينا الحرام جميعًا يا رجال أن عبد المتجلى ابن مزاج قرارى».

حاول أن يدفع عن نفسه التهمة، فضاع صوته فى خضم الصخب العاصف، وانتهز فرصة صمت صغيرة وقال:

- «اسمحوا لى بكلمة بسيطة.. إسرائيل هى التى تصدر إلينا الحشيش لتهلكنا.. هل تعرفون؟؟».

رد العمدة الرئيس:

- «ومن الذى كان يصدره قبل أن توجد يا عبد المتجلى بك؟».

- «الإنجليز».

- «يقول العلماء إنه موجود حتى قبل العثمانلى».

وأدلى الأسطى حنفى بدلوه فى المناقشة فقال:

- «الحشيش هو الانفتاح.. أكبر دول فى العالم مدمنون. أمريكا.. أوربا.. أستراليا..».

- «أنت تذكرنى بالعجل الأسترالى».

قاطعه المعلم الكبير:

وضج الكهف بالضحك، وهب الأسطى حنفى من مكانه، ومضى صوب المعلم، ثم احتضن رأسه الصلعاء بين راحتيه، وأخذ يقبلها بحرارة ويقول:

- «وشرفى أنت عسل.. أكبر فيلسوف عرفته فى حياتى».. ثم التفت إلى عبد المتجلى قائلاً:

- «هذه تجربة بالذخيرة الحية.. ألا ترى ما يفعله الحشيش فى تنوير الأمخاخ؟».

وأكلوا حتى الثمالة، وأكل معهم عبد المتجلى قليلاً، ومر نصف الليل بدون أن يشعروا، تثاءبوا.. وحلوا أجسادهم دونما اتفاق مسبق، وسكنت الجمرات واسودت كالليل الناعس فى الخارج، وتسللوا من دهليز باهت الضوء، صامت كالقبر، كان الأسطى حنفى يمشى مترنحًا، وإلى جواره عبد المتجلى يسنده، وعيناه تجوبان العالم النائم.. وبعد فترة من المشى الرتيب سأله عن الونش، أجاب حنفى: «لقد قلت كل ما عندى أثناء التحقيق.. انتهت ورديتى وأتيت بيتى، ثم التحقت بالأصدقاء القدامى فى مجلسنا المعهود الذى تركناه منذ دقائق طويلة..

طويلة . . كهذا الطريق الطويل . . عرفت الخبر من أفواه الناس . . ليس لى رأى شخصى فى هذه القضية . . تعلم يا عبد المتجلى أن الآراء الشخصية لا قيمة لها فى مثل هذه القضايا . . العصابات تملأ البلد ، ولكل عصابة منطقة نفوذ ، الحكومة تعلم ذلك . . وبلاغات سرقات السيارات فى كل مركز شرطة . . إنهم يختطفون السلاسل الذهبية والأقراط فى عرض الطريق ، ويسرقون الأعراض مع سبق الإصرار والترصد . . ضاع الإيمان فضاع الأمان . . لو قطعوا يد السارق لتحول ربع السكان إلى ذوى عاهات ولاحتاجوا إلى إعانات أجنبية . . سواء سرقوا الونش أو البيضة فهى سرقة . . ثم ما الذى يجعلك تهتم بحادث الونش إلى هذه الدرجة؟؟» .

لم يعلق عبد المتجلى ، فهو مدرك أن صاحبه مخدر على الرغم مما يقوله من كلام يبدو معقولاً ، وأخيراً قال له الأسطى حنفى : «إن المباحث لم تهتم بالأمر كما يجب» .

قال عبد المتجلى فى لهفة :

- «كيف؟؟».

- «كان يجب أن تداهم الورش».

- «لماذا؟؟».

- «الونش لا يمكن إخفاؤه إلا فى ورشة . . وأنت براد قديم وتعرف».

- «الورش لا تعد ولا تحصى».

- «الكبيرة منها هى المكان المناسب».

- «لماذا؟؟».

- «لها القدرة السريعة على فك الأجزاء، وصهر الحديد، وتضييع معالم أى آلة أو مركبة . .».

- «لكن هذا يحتاج لجيش من الفنيين والمخبرين».

- «إذا أرادوا الكشف عن السر . .».

تجشأ الأسطى حنفى واضعًا قبضته الملوثة بالشحم أمام فمه، ثم قال:

- «كل شركة لها رأس كبيرة تحميها أو رؤوس . . » .

- «حتى الورش؟؟» .

- «ولـمَ لا؟؟ حـمـاية رأس المال والنشـاط حـاجـة أساسية» .

خيل إلى عبد المتجلى أن قضية الونش المفقود أعوص من قضية الشرق الأوسط ، بل ربما لو أمكننا حل القضايا اليومية كقضية الونش وغيرها لأصبح من الميسور أن نشكم إسرائيل بل وأمريكا نفسها . .

حينما ألقى بجسده على السطح تحت السماء الصافية ، شعر بما يشبه الأزيز فى رأسه ، يخيل إليه أن الدخان الذى ملأ الغرفة الصغيرة قد نفذ من خياشيمه وهو معهم ، فاستنشق على الرغم منه كميات من الحشيش المحترق ، إنه حشاش سلبى ، كالمدخن السلبى تمامًا ذلك الذى يجلس مع المدخنين فى أماكن مغلقة ، فيصيبه من النيكوتين والقار نصيب ، بل قيل إن بعض الأطفال الرضع ماتوا بسبب ذلك . . ليته ما ذهب . . لكنها تجربة على أى حال ، ونام

نومًا ثقيلاً ، فشلت كل محاولات بيومى لإيقاظه كى يصلى الفجر . . ظل شاردًا فى أحلام كثيرة متشابكة ، تختلط فيها صورة الونش بأمه وأخته بدرية وحضرة العمدة والشيخ الطوخى وأم صابرين ومحفل الحشاشين ومجاذيب السيدة ، وصاحبة الجنة الخضراء التى مرت من أمامه هذه الليلة كطيف عابر ، يبدو أنها لم تعجبها مظاهر الزحام والضجيج التى عكرت أحلامه ووشحتها بالأبخرة الزرقاء .

قرر أن يظل حبيس السطح اليوم ليغسل ملابسه ، وينظف حذاءه ، ويقرأ فى بعض الكتب ، ويفحص ملف الونش كى يلخص ما توصل إليه من معلومات فى نقاط محددة واضحة وبصراحة تامة ، فهو للأسف لم يمسك بخيط واحد يؤدى إلى ما يمكن أن يعتبر بداية صحيحة . . نعم للأسف .

إنه يمشى كل يوم فى المنطقة المشبوهة ، رأى ونشًا أحمر يقف إلى جانب الطريق ، نظر إليه فى ود ، شرد ببصره إلى بعيد «تصوروا . . الونش يحيينى . . إننى أفهم لغته . . يكاد يمد أذرعه ليحتضننى ، هذا الحديد . . الجماد

له قلب» لمس الونش فى عشق. . أودعه قبلة حانية الأوناش لا تعرف النفاق إنى سائلك أيها الونش الحبيب: «من سرق أخاك؟ لو نطقت لكفيتنى ألم السؤال، وعذاب الحيرة. . البشر يكذبون، وأنت المسخر لخير الناس سرقوك. .».

وفى رحاب أم صابرين جلس متوترًا، لقد رآه أصحاب الونش فنهروه وطردوه، وحسبوه لصًا من لصوص الأوناش وإلا لماذا يتحسسه ويتفحصه بدقة ويلتصق به فى صورة تدعو إلى الشك، ولم يترك الونش إلا بعد أن هددوه بإبلاغ الشرطة. . عجبًا. . يتركون اللص، ويسيئون معاملة المسروقين. . أوضاع مقلوبة. .

شرب الشاى من يديها الحانيتين وهو يزدرد (ساندوتشًا) من الفول، أصبح جلوسه عند أم صابرين أمرًا مألوفًا، إنها امرأة طيبة مكافحة صامدة، تشفق عليه تواسيه، وكثيرًا ما ترفض أخذ ثمن الشاى، وهو يداعب الصغيرة صابرين، إنها تحيى فى قلبه مشاعر أبوة لم يتمرس بها بعد. .

سألته باسمة عن أخبار الونش، قال فى ضيق:

- «لم يزدنى سائقه إلا حيرة..».

-«وستظل هكذا حتى تقلع».

- «وكيف؟؟».

أخذت تحدثه عن دهشتها لما يفعل، ولولا أنها أصبحت تعرفه جيداً لجزمت بأنه مجنون، هى تعرف أناساً كثيرين لهم هوايات عجيبة، واهتمامات فى منتهى الشذوذ، تشهد ذلك خلال تعاملها اليومى مع الناس، لكن قدومه من الريف بهدف البحث عن ونش لا صلة له به، لا يمكن أن تجد لها تفسيراً معقولاً، وفى القرية يسرقون البهائم والحمير والمحاصيل والأموال، أما أجدر به أن يوجه طاقته محليًا بدلاً من أن يستنزفها هنا بحثًا عن ونش تمتلكه شركة كبيرة ومأمن عليه؟

تضايق الأسطى حنفى عندما جاء ليشترى سجائره وسمع عبد المتجلى يوجه إليه للمرة المائة سؤالاً عن الونش وقال:

- «أى ونش تقصد؟؟ لقد سرقوا آخر. . هل هو تحقيق؟؟ أنا لست مسئولاً يا عبد المتجلى عن أوناش البلد، فليذهب الجميع إلى الجحيم. . الفاضى يعمل قاضى. . إذا أردت أن نظل أصدقاء فلا تحدثنى عن الونش مرة أخرى. . اللعنة على كل أوناش البلد وسياراتها ودراجاتها وعلى القطاع العام والخاص. . وال. . ».

وتدخلت أم صابرين كى تخفف من حدة الموقف، وأهدت حنفى زجاجة من الكولا الباردة حتى يهدئ أعصابه الثائرة، وقالت وهى توجه الحديث إلى عبد المتجلى:

- «لا تغضب. . قلب حنفى أبيض. . وهو يحبك».

واعتدل المزاج، وعادوا جميعًا يتحدثون فى أخوة ولطف، لكن عبد المتجلى كان يشرد من آن لآخر، يواسى نفسه خفية، إن العقبات دائمًا تعترض طريق المخلصين والمصلحين، وعليهم أن يصبروا ويتحملوا، هكذا تعلم فى المدارس، كما قرأ أيضًا عن قادة الفكر وزعماء الإصلاح وقادة الجيوش الكبار، وعايش معاناتهم وتضحياتهم،

فالتغيير له ثمن غال، والحقيقة كالعروس الحسيبة النسبية، الجميلة الثرية، لا بد وأن نبذل من أجلها كل ما نملك. . الناس- فى عمومهم- جهلاء، هكذا يؤمن عبد المتجلى، وليس فى الإمكان محو أميتهم وجهلهم بين يوم وليلة، ولا بالطريقة التى تتبعها الحكومة فى محو الأمية. . إن إعداد الشعب للقرن الحادى والشعرين يحتاج إلى عقول جبارة، وإرادة نافذة كإرادة الأوناش، الونش دائمًا يتقدم. . ويعمل ما دام يمتلك الطاقة والقيادة الواعية. . بطىء الحركة لكن ضربته لا تخطئ، حقيقة يجعجع لكن فعله أقوى وأعلى من صوته، ثم إنه ينكر ذاته، ويستسلم كطفل وديع، يسمع ويطيع، لا يتمرد أو يثور، عرف الونش طريقه فشعر بالسعادة، فأصبح كالعابد فى محراب العمل، حتى اللص عندما قرر أن يسرقه، سار معه هادئًا واثقًا، إنه مؤمن تمام الإيمان بأهمية دوره فى أى موقع. . لذلك أحببت الونش. . وسأبحث عنه ما حييت. . وسأدافع عنه حتى آخر قطرة من دمى. . لن أكترث بكلام الخلق، فهم يفعلون الموبقات،

ويظهرون شرفاء أبرياء فى ملابسهم الأنيقة، وعباراتهم المنمقة وابتساماتهم الزجاجية الباردة. . إن تحرير الونش، وإعادته لأصحابه، واستخدامه فى الخير قضية مقدسة.

عبد المتجلى يفكر حاليًا فى المرور على الورش الكبيرة، فهو يعرف مواصفات الونش المفقود، وقد يعثر على دليل ما فى هذه المزارع الصناعية الصغيرة، وفيها الكثيرون من الأطفال، كل واحد منهم اسمه بلية أو صامولة أو. . إنها أسماء حركية مميزة، تقرب الإنسان من عالم الجماد، أو بمعنى آخر هى اندماج فى عالم التكنولوجيا حتى تصبح هى والآدميون كيانًا واحدًا. .

استيقظ من أحلامه على ضحكة أم صابرين التى أخذت تعتب عليه لشروده الطويل، وذكرته بقريته وأهله، وتعجبت كيف لم يرسل إليهم حتى الآن ولو خطابًا واحدًا للاطمئنان، وكانت لها وجهة نظر ظريفة وهى أن الحل الأمثل لمشكلة الونش أن يعود إلى القرية ويبحث عنه هناك (كانت تضحك وتغمز) لعله أثناء بحثه يعثر على بنت الحلال التى تصلح زوجة له، فتشاركه البحث عن الونش،

وبالتأكيد سيصلان معًا إلى نوع من النجاح، وتحقيق الآمال . . وأكدت له بصراحه أن ما يعانى منه نوع من الحمى والعلاج هو الزواج . . هز رأسه مفكرًا . . إنه يسمع هذا الرأى كثيرًا، لكن كيف يسعد بالزواج وهو أبعد ما يكون عن الحقيقة، وعبر عن ذلك المعنى لأم صابرين التى بادرت بالقول :

- «الحقيقة المؤكدة هى أننا نتزوج وننجب أطفالاً ونشقى ونعيش . . ونأكل . . » .

قال فى حماسة بادية :

- «الإنسان يصنع التاريخ . . » .

- «لا تاريخ ولا جغرافيا . . دعك من هذا الكلام . . كلنا على الهامش . . ومن يحاول القفز تنكسر رجله . . ورأسه أيضًا . . كن عاقلاً يا عبد المتجلى . . » .

المرأة تتحدث كفيلسوفة، وتعبر عن واقع المستضعفين والمكسورين والمحزونين، لقد تكيفت مع الزمن، ورضيت بالمرارة مذاقًا، قالوا إن المادة المرة تفتح الشهية كالأطعمة الحريفة تمامًا، إنها إرادة الله .

أفاق من أحلامه على صدمه قوية حين قالت له :

- «أتتزوجنى؟؟» .

دارت به الأرض ، زاغت نظراته ، دق قلبـه دقـات متسارعة تكاد تخترق قفصه الصدرى ، فتح فمه كالأبله ، وقف كالتائه الذى لا يدرى ماذا يفعل ولا أين يذهب ، طأطأ رأسه لهيبة الموقف المعقد ، مرة أخرى حاول أن ينطق ، فلم يطاوعه لسانه ، انحشرت الكلمات فى حلقه ، وفجأة قال :

- «موافق . . » .

لم يستطع بيومى أن يمنع المكتوب ، وشيخ الخلوة قال لا بأس ، ما دام على سنة الله ورسوله ، ولو كان الصداق بضع تمرات ، فلماذا تعقدون الأمور؟؟ ليلتها أدرك أنه دخل دنيا جديدة ، وارتدى بذلة جديدة أيضًا ، وأكل حتى أتخم ، وتوارى شبح الونش العتيد خلف الستائر الأرجوانية . والظلال المتوهجة فى الغرفة ، وفى روحه ودمه ، وقال لها وهو يتثاءب فى الضحى الذهبى الحنون :

- «أين سنعيش؟؟» .

قالت :

- «حيث نجد رزقنا يا سى عبد المتجلى . . مصر كلها لنا . . والبلد بلدنا ، وأنا وراؤك حيث تخطو . . طاعة الزوج عبادة ، وأنت رجل مؤمن تعرف الله . . وهذا يكفى . . » .

نظرا إلى السقف وتمتم :

- «الأرض تفرح بصاحبها . . » .

- «وصاحبها يفرح بها . . » .

- «وكيف الفرح بدون لقاء . . » .

- «الفرح فوق الزمان والمكان» .

ابتسم وقال :

- «حب بالمراسلة ؟ ؟» .

- «لا تحمل همًا . . وافعل ما يحلو لك» .

- «لن أعيش عالة» .

- «بالطبع . . » .

- «وما هو العمل المناسب؟».

- «ما تحبه.. بشرط ألا يكون هو البحث عن الونش..».

أشار بسبابته محذرًا:

- «إلا الونش..».

- «على أن يكون ذلك فى وقت الفراغ..».

- «كلامك يبدو معقولاً..».

وذهبا يوم الجمعة إلى حديقة الحيوان، وسعد كطفل برؤية القرود والأسود والزرافة والفيل والجمل ذى السنامين، والذئب الذى قرأ عنه فى كتب المدرسة ذلك الذى ينام وإحدى عينيه مفتوحة، أعجبته القرود جدًا، وخاصة القردة وهى تحنو على أولادها، وتقدم فروض الطاعة والولاء لزوجها.. أكلا الشطائر المحشوة باللحم المفروم، وأتبعاها بالتين البرشومى، إنه يعشق التين، وذهبا إلى السينما فى المساء، كانت دارًا من الدرجة الثالثة، وأعجبته قصة «سلامة».. كاد ينسى الونش تمامًا لولا أن

رأى شبيهًا له فى أحد الأفلام الأجنبية، كان يلاحق الترجمة بإمعان، أعجبه النشاط الصناعى والعمرانى فى الغرب، تمتم: «إسرائيل هزمت العرب بالتكنولوجيا» قالت: «ولم لا نشتريها؟؟» همس: «إنها لا تشترى كما تشترى «الكوسة»، لا بد أن تنتج محليًا، وإلا فستظل ناقصة.. ستقولين ولماذا لا نفعل؟؟ وأنا أقول هناك ألف سبب وسبب، لكن ليس من بينها الاستعمار، ولكن من المؤكد أن غفلتنا هى العلة.. دائمًا نعيش ماضينا أو يومنا، ولكننا لا نفكر فى غدنا..».

قرصته فى ذراعه خفية، وقالت وابتسامتها ونظراتها تتألق فى ظلام الصالة المكتظة بالجمهور: «اعمل معروفًا، ولا تحدثنى عن الونش» تمتم مرة أخرى: «أعرف أننا فى شهر العسل.. لكن لا بد أن نسافر إلى الأهل فى «كفر أبو سالم».. هذا واجب».

اشتد حنينه إلى «أم العواجز» فأوصل زوجه إلى محلها، واتجه إلى المسجد، ولم ينس فى الطريق أن تتسم أخبار الونش المفقود، لاحظ أن عينين تلاحقانه وهو يتحدث مع بلية، مجرد مصادفة، ولهذا لا يجب أن يكترث، لكنه

كلما نظر ناحية الرجل الذى يراقبه أمسك به متلبسًا ينظر ويرهف السمع، لا بأس فهو لا يستطيع أن يجد من حرية الآخرين حين ينظرون أو يتحركون، لكن شيئًا من القلق يتفشى فى داخله ويكربه، كلمات «بلية» له هذه المرة شدت أعصابه بقوة، «بلية» أخبره أن الونش المفقود قد بيع لناس من الصعيد . . جن جنونه . . مستحيل، وماذا يفعلون بالونش فى الصعيد . . هذا لا يهم، لو صدقت أخبار بلية، فسيكون النجاح على وشك التحقيق، فى أى مكان فى الصعيد يا بلية؟؟ أسيوط؟؟ ولماذا أسيوط بالذات؟؟ بلية لا يعرف . . آه . . فى الصعيد لا يأمن العواقب، فهناك الحوار له قواعد وأصوله حيث يسبق السلاح الكلمات، وأى هفوة ستقضى عليه قضاء مبرمًا، ويصبح بحق شهيد الونش . . وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لا يستعين بالحكومة، نقطة أخرى أشد إثارة وغرابة . . إن الرجل الذى استولى على الونش وباعه «باشا كبير» من باشاوات هذه الأيام . . عبد المتجلى يعرف أن اللقب ألغى منذ قيام الثورة بمراسيم، لكنه استشرى وأصبح يغدق على كل من هب ودب ما دام

يملك النفوذ أو الرصيد المناسب من «الأرانب» «والفيلة» . . ولماذا لا يجرب حظه فى «أسيوط» بعد أن يتأكد من هذه المعلومة، ويضيف إليها المزيد من المعلومات والدراسات؟؟

تضايقت أم صابرين لحد كبير لكنها أخفت ما يعتل فى نفسها حتى لا تجرح مشاعره، فذهابه إلى أسيوط حماقة أكبر من حماقته حين أتى إلى القاهرة ليمسك بالسراب، ومعنى هذا الاندفاع أن أى عابث يستطيع أن يدفع به ليعبر الحدود إلى السودان بحثًا عن الونش إذا أخبره أن تجار الأغنام قد سحبوه إلى الخرطوم مثلاً، وربما يستطيع آخر أن يقنعه بأن قبائل «أولاد على» سربوه إلى ليبيا، خاصة أن عشائرهم موزعة بين الجماهيرية الليبية وجمهورية مصر العربية . . وكادت أن تهاجمه بشدة وخاصة أنه أصبح زوجًا مسؤولاً، ولم يعد كالأمس حرًا طليقًا، فهناك تغيير جوهرى جرى على نمط حياته، ومن ثم يجب أن يتبعه تغيير آخر فى البرامج والاهتمامات، لكنها آثرت ألا تفجعه هكذا دفعه واحدة، ومن ثم وضعت فى يده مبلغًا من المال، وقالت :

- «اعلم أنك لو وجدت الونش هناك فلن تستطيع أن تمسه أو حتى تقترب منه؛ لأن حيازتهم له تعنى أنه أصبح ملكهم، ولن يجرؤ أحد أن يسألهم من أين أتوا به. . ».

أصابته الدهشة، وحملق فيها مذهولاً وتمتم: «حكومة ثانية؟؟».

قالت: تمامًا. . إنهم فى الجبل، وحتى داخل البلاد يتصرفون ،كأنهم مستقلون فى كثير من الأمور. .

تردد قليلاً، وجلس ووقف، وأخذ يفرك يديه، لكن دافعًا داخليًا قويًا كان يهتف به كى يمضى فى خطته، ولا بأس من أن يطرق الأبواب برفق، ويخطو فى حذر، وينتقى كلماته بحكمه. هو لا يريد أن يستولى على الونش، ولكنه يريد أن يعرف مكانه أولاً، وبعد ذلك تأتى الخطوة التالية من خلال تصرفات قانونية سليمة، وبواسطة السلطة التنفيذية والتشريعية والقضائية، ويمكنه أيضًا أن يحرك الصحافة ويوعز إليها بما يشاء، لكن نبقى مشكلة «الرأس الكبيرة» التى خططت ودبرت للاستيلاء على الونش، ترى من

تكون؟ إن هناك قوى شريرة تستطيع أن تتصدى لأى منطق أو عدالة، وعبد المتجلى يطلق عليهم «أباطرة الغابات»، أشبه ما يكونون بالوحوش الضارية الجائعة، لو وقع بين أنيابهم لمزقوه إربًا إربًا، فهم لا يرحمون ولا يتراجعون، يتربصون بكل عصر، ويتكاثرون مع كل عهد، ويتشكلون حسب المواقف. . الحقيقة أنه خائف جدًا، ويبدو أن زوجه على حق حين أوضحت له طبيعة الموقف فى الصعيد، ما زال يقف مرتبكًا قلقًا فى مكانه، وهى ترمقه بنظرات خفية، وتقرأ ما فى تعبيرات وجهه من تردد، وعندما أجل السفر ليوم آخر استقبلت أم صابرين الأمر بفتور ظاهرى حتى لا تستفزه، وكأنها تريد له أن يختار ما يشاء دون ضغط أو إكراه، وبذلك لا يتسلل العناد إلى قراراته، وقضى ذلك اليوم متسكعًا بين الورش، ويجمع الأخبار، ويراقب الصفقات، ويلتقط الكلمات التى تتبعثر هنا وهناك فى عالم الخردة العجيب، وكم كانت دهشته حينما ذهب إلى أحد المقاهى الشعبية الصغيرة يشرب كوبًا من الشاى، فإذا به- بعد أن جلس- يرى رجل الأمس ذا النظرات الحديدة التى

كانت تحاصره، أهى مصادفة أخرى؟؟ لكن الرجل هذه المرة يلقى التحية والسلام على عبد المتجلى، ثم يجلس معه، هكذا بدون مقدمات، ويفتح معه موضوع الونش. .

بطبيعته الريفية البسيطة قال:

- «وكيف عرفت؟؟».

- «نحن هنا جميعًا نعرفك، ونثنى على همتك باعتبارك مواطنًا شريفًا ينكر ذاته. .».

انتشى بكلمت الثناء برغم دهشته، وكانت بداية التعارف والصداقة السريعة، وشعر عبد المتجلى بالارتياح الكبير حينما أخبره الرجل بأنه من «كفر خزاعل» وهو لا يبعد عن كفرهم بأكثر من خمسة كيلومترات، وإن كان ذاك يتبع مركز «السنطة» وهذا مركز «زفتى». . وتحدثًا معًا عن الهيبة الكبرى التى حلت بالبلاد، والفوضى الضاربة بجذورها فى شتى المرافق، ومواسير المجارى التى تنفجر، والنيل الذى جف ريقه، والمياه التى لا تصل إلى الأدوار العليا، والكهرباء التى تنقطع من آن لآخر على الرغم من ارتفاع

أسعارها، والزيت الذى اختفى، والرشوة التى أصبحت عرفًا سائدًا، والخسائر التى تنقص بناء القطاع العام، والجامعات والمدارس التى أصبح الكثيرون من خريجيها جهلة، والحشيش الذى يباع جهارًا نهارًا. . ويتكلم «عبد المتجلى» ويتكلم ويتكلم. . وصاحبه يهز رأسه فى حرارة قائلاً «أى نعم. . صدقت. . أى نعم».

وينطلق عبد المتجلى شارحًا فساد الجمعيات الزراعية، والتنظيمات الشعبية، وقوانين الإسكان والإيجار، والضرائب التى تجهز على الصغار، وترفع يدها عن الكبار «تصور يا رجل. . تاجر أخشاب يشترى صفقة من الخارج ببضعة عشر مليونًا من الجنيهات يدفع عنها ثمانية وستين جنيهًا وسبعة وتسعين مليمًا ضرائب؟؟ هذا تحد لإرادة الأمة. . أتدرى لماذا هذا الخراب والضياع والديون؟؟ إنها بسبب البعد عن شرع الله. . نسوا الله فأنساهم أنفسهم»، وقال صاحبه وهو يهم واقفًا:

-« صدقت. . هيا بنا».

- «إلى أين؟؟».

- «سأدلك على من يستطيع أن يقدم لك العون الفعلى للعثور على الونش المفقود، وبعدها تعود إلى بلدك مجبور الخاطر..».

نظر عبد المتجلى إلى الرجل فى إمعان وهو لا يكاد يصدق، لكن لعل الله أراد له الخير، فقدم له هذه الصداقة الجديدة ليعوضه عن متاعب الأمس، وحيرة اليوم، ومع ذلك فقد أصر أن يذهبا معًا إلى محطة السكة الحديد أولاً، ليحجز مكانًا إلى أسيوط بالقطار، ولم يستجب عبد المتجلى لرجاء صاحبه كى يؤجل ذلك، فركبا الحافلة إلى باب الحديد، وأنجزا المهمة بعد مشقة وعسر..

عندما نزلا فى ميدان «لاظوغلى» قال عبد المتجلى:

- «أين نحن؟؟».

- «بين فكى الأسد..».

- «الأسماء هنا غريبة.. شق الثعبان.. زنقة الستات، المذبح.. ما هذا؟؟».

دلفا إلى الباب الواسع الذى يحرسه رجال مدججون، لم ير عبد المتجلى الإشارات المتبادلة، سارا إلى مكتب جانبى، وهمس صاحبه فى أذن الجالس الذى تفحصه بريبة، لكن الموقف لم يتعد ثلاث دقائق، الناس من حولهم لا يتكلمون إلا همسًا، والحركة خفيفة وسريعة ومعبرة، يتحاورون بالنظرات والإشارات بدون أن يفتحوا أفواههم، وربما يغمغمون ويهمهمون بطريقة لا تفهم. . ودخل عبد المتجلى وراء صاحبه إلى المصعد. .

وصعد. . صعد إلى أعلى. . ما أجمل المصعد وهو يعلو كالبراق.

●●●



أخذوا يدفعونه صامتين من مكان إلى آخر، وهو يحاول أن يلتقط المشاهد المتوالية بعيون قلقة دهشة، قلبه ليس مطمئنًا، الرجل الذى يرافقه تغيرت سحنته، حتى بدا وكأنه إنسان آخر غير الذى كان معه فى المقهى، حاول «عبد المتجلى» أن يطرح بعض الأسئلة ليفهم، فلم يجد أذنًا مصغية، أو لعلهم يسمعون ولكنهم صاموا عن الكلام: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٦] صدق الله العظيم.. أمسك بذراع المرافق الصامت وجذبه بشدة وصرخ: «ماذا يحدث؟؟» انبعثت أشعة نارية من عينى الرجل ثم نزع يده ووجه إلى صدره قبضة ثقيلة آلمته، وقال: «اسمعْ.. أنت هنا لتجيب

لا لتسأل . . »، لم يفهم ماذا يقصد بالضبط ، لكن خالجه شك ، حاول أن يتكلم لكنه صرف عنه وجهه الغاضب الكالح وأمسك بياقة قميصه من الخلف وأخذ يجره ، شعر بالتضاءل والمهانة ، لكن صوتًا داخليًا أوعز إليه أن يتحمل ويصبر ، والصبر دائمًا خير وفيه السلامة . . ومر بخاطره هاجس : «أيكون هؤلاء القوم هم الذين سرقوا الونش ، وعندما علموا بأنى جاد فى البحث عنه وأوشك أن أضع يدى على الحقيقة بادروا باختطافى حتى لا ينكشف أمرهم؟؟؟ هذا جائز جدًا ، فهذه المدينة ممتلئة بالعصابات والألغاز والقوى الشريرة الخفية . . إيه يا بلد العجائب ! ! ألم تسرقوا الونش؟» .

دخل مكتبًا صغيرًا مملوءًا بالملفات والأرفف ، تفوح منه رائحة الدخان والغبار وبعض المواد الكيميائية ، ضاقت نفسه وكاد يتقيأ ، شعر بشىء من السخط حينما أغلقوا عليه الباب ، تلفت حوله فلم يجد أحدًا ، نظر إلى المكتب المعدنى الصدىء فوجد لافتة صغيرة مكتوبًا عليها اسم

ضابط برتبة رائد . . من يدرى لعله المسئول عن السرقات ، كان شاردًا يفكر ، وفجأة سمع صوتًا أجش ينبعث من خلفه :

- «وقعت أخيرًا فى أيدينا» .

احتقن وجهه ، دق قلبه ، تلاحقت أنفاسه من المباغتة ، والتفت هاتفًا : «مَنْ . . مَنْ؟» .

كان شابًا أنيقًا نظيفًا ، مشرق الوجه ، فى جبهته زبيبة صلاة كبيرة لا تخطئها العين ، وفى عينيه صفاء مبتسم ، وقال الرجل :

- «بدون مقدمات . . أريد أن أعرف متى بدأ نشاطك؟ ومن المسئول عنك؟ وفى أى تنظيم أنت؟؟ . . » .

صمت عبد المتجلى برهة لجمع شتات نفسه ، ثم تنهد وقال فى صعوبة :

- «فى الواقع أن الموضوع شغلنى منذ البداية ، لكننى لم أطق صبرًا عندما قرأت أن القضية قيدت «ضد مجهول» ، فكيف يمكن السكوت على جريمة بشعة كهذه؟؟ معناها أن

البلد كلها أصبحت معرضة لأخطار مدمرة . . لهذا تحركت وكان فرضًا علىّ أن أتحرك . . » .

ابتسم الضابط فى ارتياح ، وقال بابتسامة حلوة :

- «والمسئول؟ ما اسمه؟» .

- «أنا المسئول عن كل شىء . . كلكم راع . . ومسئول عن رعيته» .

اضطجع الضابط إلى الخلف وقال متهكمًا :

- «ومن رعاياك يا مولاى؟» .

- «أستغفر الله . . » .

وابتلع ريقه ، ثم استطرد :

- «سرقة الونش أرقتنى . . حاولت أن أوضح الأمر للناس ، سخر البعض ، وفهمنى البعض الآخر ، لا يهمنى كل ذلك ما دمت أنا مقتنع بما أفعل . . » .

غمز الضابط بإحدى عينيه ، رآه عبد المتجلى يفعل ذلك فتعجب ، لكن عجبه لم يطل ، فقد هوت صفعات سريعة

على قفاه بدون إنذار، التفت إلى الخلف، فوقعت عيناه على رفيق المقهى، أصبح وجهه كوجه الشيطان، لم يطل نظره إليه، فقد صدمته لكمة على جانب وجهه أوقعته على الأرض، حاول أن ينهض فباغتته ركلة قوية فى بطنه وآلمته بشدة فانبطح وقد اصفرّ وجهه، وسمع الضابط يصيح :

- اتركوه أيها الأوباش.. أنا لم آمركم بذلك.. اخرجوا..».

حينما أفاق عبد المتجلى فتح عينين كسيرتين، وتمتم :

- «لماذا كل هذا؟؟».

أخذ الضابط يربت على رأسه فى حنان ومودة، ثم أخذ بيده وأجلسه على المقعد المجاور للمكتب، وضغط على الجرس، فقدم أحد المخبرين :

- «هات الشاى للأستاذ عبد المتجلى».

جلس عبد المتجلى حائرًا مهمومًا، لا يفهم على وجه اليقين ذلك السيناريو الرهيب، لكن الضابط لم يدعه يهيم

فى أفكاره المشوشة، أخذ يقول له: «أنا يا عبد المتجلى رجل أخاف الله . . وأنظر إلى كل المواطنين كإخوة لا فرق بيننا إلا فى نوع المسئولية، عشت طول حياتى أؤمن بالله وبشريعته الغراء وأؤدى الفرائض فى وقتها، حججت ثلاث مرات، بالإضافة إلى خمس عمرات . . أنت لا تعرف يا عبد المتجلى تلك المشاعر الروحية السماوية التى تغمرك وأنت تطوف بالكعبة أو تقف أمام قبر الرسول الأعظم ﷺ . . . إن الدنيا كلها لا تساوى لحظة من هذه اللحظات . . لهذا أنا واثق أنك تقدر إخلاصى وحبى لك . . دعنى أسألك بوضوح أكثر:

- «هل أنت من تنظيم الجهاد، أم الجماعات الإسلامية، أم من التكفير والهجرة، أم من الإخوان المسلمين، أم من جمعية التبليغ، أم من الطرق الصوفية . . أم؟».

ساد الارتباك عبد المتجلى، وقال ببراءة:

- «وما صلة هؤلاء بالونش؟؟ ثم إننى لا أعرف الفرق بينهم، وليس لى أدنى صلة بهم . .».

دق الضابط بيده على المكتب وقال بغضب :

- «لكى نتعامل كإخوة مسلمين يجب أن تكون واضحًا وصريحًا» .

- «بالتأكيد . . » .

- «فلتجب ، إلى أى فريق تنتمى؟؟» .

قال عبد المتجلى :

- «لقد أجبت . . وأنا رجل أقرأ وحدى . . وأعمل كما ترى وحدى . . وأنا بصراحة رجل على باب الله . . » .

رمى إليه الضابط بقائمة كبيرة من الكتب ، وطلب منه أن يقرأها ، وكم كانت دهشة عبد المتجلى عندما أدرك أنها الكتب نفسها التى يقرأ فيها منذ سنوات ، ويحفظها فى دولاب عتيق ببيته ، إنها خليط من كتب السياسة والاقتصاد والشعر والقصص والتفسير والفقه وتبسيط الفلسفة ، وبعض الكتب العلمية عن ميكانيكا السيارات والكمبيوتر والصناعات الغذائية وغيرها .

وتمتم الضابط وهو يضغط على أسنانه :

- «إن فيها الكثير من الكتب التى يتغذى عليها المتطرفون» .

- «متطرفون؟؟ كيف؟ إن فيها مجنون ليلى ، والأغانى ، ورباعيات الخيام ونزار قبانى . . » .

انقلبت سحنة الضابط وقال فى ضيق :

- «وفيها أيضًا كتب «معالم فى الطريق» و«رحلة إلى الله» و«الفريضة الغائبة» ومؤلفات «الشيخ كشك» وجمهورية أفلاطونية» .

- «سيدى أنا أقرأ ما أجده على الأرصفة أو فى المكتبات» .

- «أعرف ، لكن الاختيار له معنى عندنا . . » .

- «وهو ليس له معنى عندى سوى أن أقرأ . . أنا مدمن قراءة . . » .

هب الضابط واقفًا وقال :

- «وأنت تهاجم الحكومة فى المساجد».

- «من قال ذلك؟؟».

- «أجب ولا تسأل، إن لنا مصادر معلومات مؤكدة».

- «إنهم يكذبون».

- «أهل بلدك لا يكذبون».

- «حاشا لله . . إنهم طيبون».

- «هؤلاء الطيبون شهدوا ضدك».

- «متى؟؟».

- «منذ أن بدأت تمثيلية «الونش» للتعمية . . نحن وراؤك منذ البداية . . عندما سافرت، ونزلت قرب «السيدة زينب» واتصلت بأم صابرين، وزرت الورش . . وتعرفت على «بلية» . . هل تتذكر بلية . . وحنفى وبيومى والمجاذيب، وجلسة الحشاشين . . نعرف أنك رفضت الحشيش، وهذا هو الذى أكد لنا هويتك . . وكنت على وشك السفر إلى أسيوط . . ».

وصمت الضابط برهة، ثم اقترب من عبد المتجلى وأمسك بكتفه اليسرى وهزه بقوة وهو يقول:

- «أنت ضابط اتصال».

شحب وجه عبد المتجلى مرة أخرى وهتف فى تعجب:

- «ضابط؟؟».

- «نعم..».

- «لا شك أنكم أخطأتم فى اسمى.. أنا لم أكن ضابطًا ولا حتى عسكريًا طول حياتى.. إنه تلفيق يا سعاد البك.. وما أنا إلا موظف بسيط بدبلوم الصنايع ومنتسب لكلية الحقوق هذا وضعى».

إن موضوع الونش لم يكن مقنعًا للضابط، بل هو - حسبنا يرى- مجرد ستار يختفى وراءه عبد المتجلى الحقيقى.. عبد المتجلى المتطرف ذو الوجه الإرهابى القبيح، الذى ينقل الرسائل والأوامر بين الفصائل الإسلامية المتطرفة فى المحافظات والقاهرة وأسيوط،

والصعيد بصفة عامة، حيث تتصف هذه الجماعات المتطرفة بالعناء والإصرار والمغامرة، ولا شك أن عبد المتجلى إذا تكلم فلسوف يكشف عن أسرار رهيبة تشى بالكثير من الحوادث الغريبة التى تتعلق ببعض محاولات الاغتيال والمتفجرات والتحركات الغامضة.

لم يصدق عبد المتجلى ما يسمعه من الضابط المحقق، وطاف بذهنه خاطر ملح، لكنه يخاف أن يفصح عنه، إنه الآن فى مأزق خطير، وعليه أن يتصرف بحكمة، وأن يتحلى ولو بقدر قليل من الشجاعة، وقال عبد المتجلى بصوت خفيض:

- «سيدى.. لأكن صريحًا معك.. هل تريدون منى أن أكف عن البحث عن الونش؟؟ وهل أفهم من ذلك أنكم تعرفون أين اختفى الونش؟؟ فى هذه الحالة يمكن أن..».

صرخ الضابط:

- «أتساومنى أيها الكلب؟؟ أو تحسب أننا ضالعون فى سرقته؟؟».

ثم قهقه الضابط :

- «إنك ضليع فى التضليل . . أنت داهية . . تريد أن توهمنى بأن الونش هو قضيتك . . وأنك لا تعرف شيئًا عن المتطرفين والتنظيمات . . حسنًا . . لقد أعطيتك فرصة ذهبية ، لكنك ستضيعها بغبائك . . لقد تعاملت معك بأخوة بشرط الصدق والصراحة ، وها أنت تخل بالشروط . . ذنبك على جنبك يا عبد المتجلى . . » .

وضغط الجرس بطريقة خاصة . . دخل الزبانية . . لم يقل الضابط كلمة ، لكنهم كانوا يفهمون ، أمسكوا بشعر عبد المتجلى وجروه فى عنف وسرعة ، وهم يكيلون له الضرب والسب ، وصرخ عبد المتجلى بدون وعى :

- «إنهم يسحلوننى يا بك . . » .

تمتم الضابط وهو يشعل السيجارة بقداحته الذهبية :

- «إنك لم تَرَ شيئًا بعد» .

هذا العالم الأصم لا يسمع صراخه وتأوهاته ، وذلك التيه الرهيب الذى يترامى داخل جدران الزنزانة الأربعة لا

نهاية له، والسياط والعصى والأيدى والألسنة تعزف مقطوعة دامية رهيبة تنداح موجاتها الوحشية فى روحه وجسده وعقله، وفى لمحة خاطفة عرف معنى القهر الحقيقى، وفهم لأول فى حياته معنى الكفر، وبدا له أن الانتماء الحقيقى، والصدق الإنسانى يعنى الموت فى كثير من الأحيان..

كان يتمتم بينه وبين نفسه: «المشكلة المأساوية أنهم لا يفهموننى، وأنا لا أفهمهم، كلانا يتكلم لغة خاصة به، الشك وسوء الظن والحقد هم سادة الموقف».

عبد المتجلى يشرب كأس الحنظل فى محبسه، «وكَفْر أبو سالم» -أو كفر كلام- قد انتشرت فيه الشائعات، فقد عرفوا أن عبد المتجلى قد ألقى القبض عليه، وأنه تحت التحقيق فى مباحث أمن الدولة، وقد رأوا بأنفسهم حملة وصلت القرية لتفتيش بيته وسؤال أمه وأخته وبعض أصدقائه المقربين، وأخذوا الكتب التى دفع فيها كل ما يملك، وأشيع أيضًا أنهم وجدوا أثناء التفتيش وثائق مهمة

لها خطورتها، كما عثروا على كمية من الذخيرة الحية والمتفجرات الصغيرة المصنوعة من أعواد الكبريت فى مخبأ بحظيرة المواشى، وقال آخرون إن عبد المتجلى اللئيم الحويط كان من قادة المتطرفين على مستوى الجمهورية، وأن له صلة ببعض الأحداث الإرهابية التى جرت مؤخراً، ولم يكن أحد بقادر على أن يعرف مدى صدق هذه الإشاعات ولا مصادرها الحقيقية، لكن الحاج «إسماعيل المغربى» قال:

- «يا ناس لا تصدقوا هذه المزاعم.. إنها إشاعات مخبرين.. وهو أسلوب يلجأون إليه لتلويث سمعة المعارضين منذ أيام عبد الناصر.. أنتم طيبون وتنسون ما جرى.. وعبد المتجلى إنسان طيب ساذج أوقعه إخلاصه الطفولى فى مأزق قاتل..».

أصبح بيت عبد المتجلى كالوباء يفر الناس منه، وحتى المجاملات الإنسانية لم يعد لها ضرورة بالنسبة لأمه وأخته، وقالت الأم:

- «لقد جر على نفسه المصائب . . لكن لابد أن نوكل له المحامين . . ولا مانع من أن نبيع الأرض لنشترى رجلنا . . ».

وعندما لم يعد عبد المتجلى إلى شقته لدى أم صابرين أوجست خيفة، لكنها اعتصمت بالصبر على أساس أنه قد نفذ برنامج السفر إلى الصعيد، وفى الصباح جاءها الأسطى حنفى بالنبأ المشئوم، حيث أخبرها أنهم استدعوه كما استدعوا بيومى لأخذ أقوالهم، وأنه رأى عبد المتجلى فى حالة يرثى لها من الإهانة والإهمال، فجن جنونها وأخذت تصيح على ناصية الشارع، وتسب وتلعن أولئك الذين اختطفوا زوجها خفية، واتهمتهم بأنهم لصوص وقطاع طرق، وأنهم . . وأنهم . . وأغلقت محلها، وهرولت إلى حيث ألقوا عبد المتجلى، لم يكن الأمر سهلاً، فقد كانت لا تجد من يرشدها أو يتعطف عليها بتوضيح الموقف، ولا أسلوب التعامل . . ولم تجد بدًا من أن تذهب إلى أحد المحامين الذين تعرفهم، فأوصاها بأن تذهب إلى زميل له يستطيع أن يتعامل مع القضايا السياسية؛ لأنه هو شخصيًا متخصص فى قضايا المخدرات . .

على «باب السيدة» كان الزحام شديداً، الذاكرون يتطوحون، والمنشدون يغنون قصائد العشق الإلهى، والطبول تدق، والباعة يتسابقون فى الإعلان عن سلعهم، ورجل يلبس عمامة خضراء، ونطاقًا أخضر على وسطه، ومسبحة طويلة تطوق عنقه، ويغنى بصوت شجى:

امبارح العصر جانى الحب فى قلبى

خايف أقول «آه» من اللى قاعدين جنبى

وامرأة قروية عجوز تزحف على مهل مع ابنتها الجميلة وتقول:

- «آه يا سيدة.. كلهم تخلوا عن عبد المتجلى المسكين ابن المسكين ابن المسكينة».

اجتمع مجلس القرية على عجل بصفة غير عادية، وتصدر الرئيس الحلبة، وسمى باسم الله والوطن، ودخل فى الموضوع مباشرة، قال وهو ينفخ دخان السجارة فى عصبية:

«تعلمون أن المواطن عبد المتجلى قد أساء إلى سمعة المجلس وإلى سمعة القرية بصفة عامة، وأنتم تعلمون أنه

حتى وقت قريب كانت سمعتنا فى السماء، فجاء هذا الجاهل -سامحه الله وهداه- وهدم ما بنيناه من مجد واحترام فى سنوات كفاحنا الشعبى الطويل حتى شهد بكفاءتنا القاصى والدانى . . لقد كانت سيادة الوزير المحافظ أمس ثائراً، وأعلن بصراحة أننا تهاونا مع عبد المتجلى منذ البداية، ولم نأخذ الأمر مأخذ الجد، فأخبرت سيادة المحافظ بأننا سبق ورفعنا تقريراً سريًا بشأنه، وأننا أصدرنا قراراً بفصله، لكن المحافظ اعترض على ذلك، وأوضح أن فصله فى هذا الوقت بالذات لا يجوز، لكنى شرحت له أن الفصل قانونى، وذلك لانقطاع عبد المتجلى عن العمل أكثر من شهر ونصف حيث إنى لم أوافق بالفعل على العطلة التى طلبها أول مرة وثانى مرة، ولم يكن أمامى -أيها الإخوة- حل غير ذلك حتى نحفظ ماء وجوهنا، وتظل قريتنا مناراً للصدق والإخلاص والتأييد لحكومتنا الرشيدة، ولمحافظنا الهمام . . ».

وقاطعه أحد أعضاء المجلس هاتفًا بصوت أجش :

- «يسقط الخونة. . الموت للخونة. . عبد المتجلى عدو للديمقراطية».

ورددوا الهتاف بصوت واهن، وعادة الرئيس يواصل خطابه الحماسى:

«. . . إن بلدنا في حاجة ماسة إلى الاستقرار، وإن الأعداء يحاربون وحدة هذه الأمة، ويريدون النيل من منجزاتها، وأنتم تعلمون الخطوات الجبارة التى تمت على الصعيد الاقتصادى والزراعى وال. . ».

فقال أحد الأعضاء مقاطعًا:

- «لكن يا سيادة الرئيس أنت تعرف من هو عبد المتجلى. . ».

- «إن عبد المتجلى الذى تعرفونه غير عبد المتجلى الحقيقى الذى ثبت بالدليل القاطع. . نعم القاطع أنه ضالع فى التآمر، وقد أدلى باعترافات كاملة. . أرجو عدم المقاطعة حتى أنتهى. . ».

وواصل الرئيس حديثه :

«لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها . . صدق رسول الله ﷺ . . ولو كان عبد المتجلى ذراعى لقطعته . . يجب أن نبرأ منه جميعًا . . وأقترح إرسال برقية فورًا بهذا المعنى لسيادة المحافظ ولوزير الداخلية وللأمين العام للحزب . . كما أقترح أن ننشر فى الصحف تأييدًا للحكومة ، ولرجال الأمن اليقظين بل والساهرين على أمن الوطن وسلامته وهذا أقل ما يجب . . » .

ورد رجل من أعضاء المجلس يكتم ألمه :

- «إنهم ليسوا فى حاجة إلى تأييدنا ، وعبد المتجلى لا فى العير ولا فى النفير . . ولنوفر هذا المبلغ لنرمم به ماسورة المياه المكسورة» .

رد الرئيس :

- «أنا مصر ، بل وأعتبره واجبًا وطنيًا مقدسًا» .

وأشعل سيجارًا آخر واستطرد :

- «وعليكم أن تشجعوا أهل القرية خاصة النظار والمدرسين وذوى الحيثية على إرسال برقيات مماثلة حتى نزيل ما علق باسم قريتنا من أوساخ . . » .

واستاء أهل القرية مما يجرى ، كانوا يعتقدون أن الواجب يقتضى التفكير أولاً فى مساعدة عبد المتجلى حتى تنقشع محنته ، وتظهر براءته ، وأخذوا يتشككون فى كل الإشاعات التى انتشرت ، ويتناولونها بالتدقيق والتحليل ، وأيقنوا أن مصدرها العمدة والخفراء ومن فوقهم من أهل الإدارة ، ورأى الحاج «إسماعيل المغربى» أن التقاعس عن نجدة عبد المتجلى سوف يورث القرية عارًا أبديًا ، وقال على ملأ الناس أمام محله : «حتى ولو كان عبد المتجلى مخطئًا أو معارضًا أو متطرفًا فإن القانون لا بد وأن يأخذ مجراه ، وأن يجرى التحقيق بطريقة عادلة . . ألا تقول الديمقراطية ذلك ؟ ؟ ومن يدرى قد يكون الأمر مجرد اشتباه ، ثم يفرج عنه ، عندئذ سندرك أننا قد ظلمناه ، وقصَّرنا فى حقه . . وقريتنا على مدار تاريخها الطويل تتعاون فى الأزمات ، وفى الأفراح والمآتم ، وليس عبد المتجلى غير أمه العجوز

وأخته الصغيرة. . فلا أقل من أن يتقدم بضعة رجال منا للذهاب إليه، وعمل ما يلزم، وإذا لم تذهبوا فسأذهب وحدى. . . ».

قال شيخ المسجد:

- «سآتى معك يا إسماعيل».

رد عليه قائلاً:

- «إن مركزك حساس، وأنا أعرف القيود الوظيفية».

- «إذا لم أفعل فلا قيمة لأى كلام أطلقه فوق المنبر، والمتهم برىء يا إسماعيل حتى تثبت إدانته. . والوقوف إلى جوار عبد المتجلى لا يدخل فى نطاق الجريمة، قسمًا بالله لآتين معك، وليكن ما يكون. . السكوت على الظلم ظلم».

فى الصباح الباكر خرج ما يقرب من خمسين رجلاً من أهل «أبو سالم» قاصدين المحافظة، كانوا يدقون الأرض بأحذيتهم السوداء الثقيلة التى تجمد على نعالها الطين،

يتقدمهم الإمام بعمامته وجبته متكئًا على عصاه السوداء المعوجة، وإلى جواره الحاج إسماعيل، وبعض شباب المدارس، وكم كانت دهشتهم حينما تصدى لهم الخفراء عند الكوبرى فى المنطقة الشرقية، وأصدروا إليهم أمرًا بالعودة إلى بيوتهن؛ لأن التجمعات والتظاهرات ممنوعة طبقًا لقانون الطوارئ، قال الحاج إسماعيل فى غضب :

- «إنها ليست مظاهرة» .

قال شيخ الخفراء :

- «وماذا تسميها؟» .

- «زيارة لسيادة المحافظ . . مسيرة سلمية . . » .

- «ممنوع يعنى ممنوع . . إنها أوامر الحكومة . . » .

واحتد النقاش، وتجمع الناس، واستيقظ رئيس المجلس فى غير موعده اليومى، واختلط النساء بالرجال بالأطفال، وقدم حضرة العمدة بنفسه على حماره «الحصاوى»، وسدد نظراته النافذة الناقمة صوب الجميع، وأمرهم بالعودة إلى

بيوتهم، وأخذ يصرخ فيهم غاضبًا «هل أصبحتم مجانين مثل عبد المتجلى؟؟ أتريدون أن تذهبوا إليه لتشاركوه فى البحث عن الونش؟؟ آه يا بلد جهلة . . وأنت يا سيدنا الشيخ . . هل هذه تصرفات عالم دين يعرف الشريعة؟ وأصول الإدارة وطاعة أولى الأمر؟ وأنت يا حاج إسماعيل أتريد أن تكون زعيمًا على آخر الزمان؟؟ ماذا أصاب هذه البلد؟؟ لم أعد أفهم شيئًا!! عبد المتجلى مُتَّهم فى مؤامرة . . والدولة ممتلئة بالمتهمين والمتآمرين . . وستأخذ العدالة مجراها . . أتعرفون ما معنى تجمعكم هذا؟؟ معناه أن تساقوا جميعًا إلى المعتقل، ثم تحالوا إلى نيابة أمن الدولة . . وحتى لو أفرجت عنكم النيابة فإن لوزير الداخلية الحق فى رفض الإفراج . . بل يمكنه أن يفرج عنكم بضع ساعات ثم يعيد اعتقالكم مرة أخرى لشهور . . ».

وانطلقت صفارات الخفراء، ثم انهالوا ضربًا بالخيزران على الجميع باستثناء الإمام والحاج إسماعيل . . اللذين بقيا وحدهما يشهدان المسرحية المقذعة، واقترب منهم العمدة بعد أن انفض السامر، وقال :

- «يمكنكما أن تذهبا وتتحملا التبعية، لكن لا تورطا الفلاحين معكما فى أمر لا يفهمون أسراره . . » .

رمقه الشيخ الطوخى بنظرة مبللة بالأسى وقال :

- «أنت تعلم أننا لم نُرِدْ إلا الخير» .

قال العمدة فى عناد :

- «ما تراه خيرًا قد يكون شرًا من وجهة نظرى» .

- «العلم لأهل العلم يا عمدة» .

- «ليس هذا علمًا يا شيخنا . . » .

- «ماذا تسميه؟؟» .

- «هو سياسة . . إدارة . . ضبط وربط . . وأنت تخلط . . » .

- «أخلط ماذا يا عمدة؟» .

- «تخلط الدين بالسياسة . . » .

أغمض الشيخ عينيه حين تدحرجت دمعة على الرغم منه، وقال :

- «رحمك الله» .

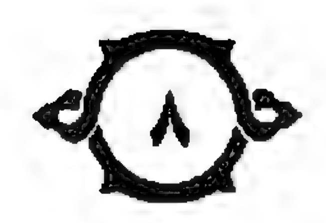
أدار العمدة رأس حماره إلى الخلف ، وهز رجليه ، واندفع الحمار عائداً بمن عليه وهو ينهق ، وتمتم الحاج إسماعيل ببيت من الشعر القديم :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو

فلا رجعت ولا رجع الحمار

وقال الشيخ : «ومع ذلك فسوف نذهب إلى المحافظة فرادى . . ويجب أن نبلغ الناس بذلك سراً . . حيث نلتقى هناك ، وسوف أعد مذكرة لتقديمها للمسئولين» .

●●●



في لحظات الكرب والإهانة تواترت على رأسه الحليق نوبات من اليأس المحزن، وتزعزت قصور القيم والأحلام حتى أوشكت أن تنهدم فوقه، وتطمره من قمة الرأس إلى أخمص القدم، وتكتم أنفاسه اللاهثة حتى يفارق الحياة، لكن عبد المتجلى يقاوم في استماتة، إنه عدو اليأس، يأبى إلا أن يعيش حرًا حالمًا، حينما يموت الحلم، وتندثر الحرية، تصبح الحياة عنده بلا معنى، إنها الجنة الأرضية التي يحيا في رحابها سعيدًا، برغم ما يصيبه من إحباطات ونكسات، ولا بد أن يبقى حيًا، وأن يقاوم عوامل الضعف والفناء، عندئذ يشعر أنه ذو قيمة، وأنه إنسان، وأنه امتداد مشرق للآباء والأجداد العظام الذين استطاعوا مواصلة

المسيرة آلاف السنين ولم يفزعوا لموت أو عذاب أو هزيمة، هذا ما قرأه وآمن به، حتى استقر فى يقنه، وأصبح من الثوابت التى لا تتزعزع، والشواهد التى لا تكذب، لكن الشىء الوحيد الذى يزلزل عقيدته هى تلك السياط التى يشوون بها جسده، مع الكلمات البذيئة التى تطفح من أفواههم دون خجل أو تحفظ، والأفكار الغريبة التى يحاصرونه بها، والمبررات العجيبة التى يسوقونها للتدليل على خطئه، والبرهنة -فى الوقت نفسه- على أنهم يعاملونه المعاملة الصحيحة التى تتناسب مع جرمه وانحرافاته، إنها تجربة مرة توشك أن تغسل ما تجذر فى مخه من قيم ومبادئ، وتكاد تمحو المقدمات العظيمة التى أفسح لها فى كيانه مكانًا فسيحًا تحيى فيه وتنمو وتترعرع، إنه -لذلك- يعيد التفكير فى كل ما آمن به من مسلمات، ويتصور مواقف جديدة، لكنه فى أثناء ذلك يدرك عن يقين أن ما يتعرض له من قلق واضطراب مصدره الوحيد هو تلك الضغوط الرهيبة الهائلة التى يئن تحت وطأتها، ولذلك فقد انتهى إلى نتيجة لا يصح أن يتجاهلها، إن اتخاذ موقف

جديد فى هذه الحالة المؤقتة المضطربة سيكون خاطئًا؛ لأنه تحت ضغط وإكراه ويأس، والحالة الوحيدة التى يستطيع أن يقيم فيها أفكاره وقناعاته هى أن يكون حرًا وبعيدًا عن المجال المغناطيسى القوى، ثم ماذا هناك يستحق التغيير فى موقفه؟؟ إنه لم يتآمر أو يشترك فى تنظيم سرى للإطاحة بنظام الحكم، ولم يحمل سلاحًا، أو يشرع فى ارتكاب جريمة وهو رجل يؤمن بالله وكتبه ورسله، ويؤمن بحق الوطن فى الحرية والعدالة، كما يؤمن بأن العلم والعمل هما الأساس للخروج من المأزق، وأن أعداء الشعب الحقيقيين هم اللصوص والمستغلين وحملة السياط، وهى قضايا يؤمن بها أى إنسان طبيعى حر على وجه الأرض.

قاس الزنزانة بنظراته الحزينة، ثم رجع إلى ما حاق به من أذى بدنى ونفسى..

لقد تسلخ جلده من شدة الضرب، وامتلأ بالكدمات والسحجات، لم يكن يدرى على وجه اليقين لماذا هذا العذاب كله؟؟ ضاقت نفسه ولم يعد يحتمل، نقلوه من

مكان إلى مكان وأخذ الرجال المحققون يتقاذفونه ككرة، لم يصدق أحد منهم أنه برىء، ولم يقتنعوا بموضوع الونش، حسبوه عضواً نشطاً فى التنظيم. . أى تنظيم، لكنه ممثل بارع، داهية من نوع فريد، من يدرى فربما يكون هو الرجل الأول فى التنظيم، من آن لآخر يجدون خيطاً يؤدى بهم إلى تنظيم جديد.

قال الضابط ذو الزبيبة السوداء فى الوجه المضىء:

- «حدثنا عن جمهورية أفلاطون».

- «وما شأنى بها؟».

- «يا عبد المتجلى وجدنا الكتاب فى بيتك».

- «إنه مجرد أحلام. . يتحدث عن المدينة الفاضلة».

- «وهل هناك أفضل من مدينتنا؟».

- «الله أعلم. .».

- «يبدو أنك تدعو الشباب القيام بانقلاب لإعلان جمهورية أفلاطون. .».

تدخل الرجل المختص بالتأديب والتهذيب، وقال وهو يطوح سوطه فى حركة هادئة رتيبة :

- «لعل هذه الجمهورية تنتج كميات هائلة من البترول، وفيها عملة صعبة . . وعبد المتجلى لا شك كان يبحث عن عقد عمل ليذهب إلى هناك . . » .

رمقه الضابط بازدراء وقال :

- «أغلق فمك يا ثور . . » .

- «العفو يا بك . . » .

وعاد الضابط إلى عبد المتجلى :

- «كنت دائمًا تهاجم سياسة الدولة» .

- «هذا صحيح . . » .

- «ألا تعلم أن ذلك يهدم الاستقرار؟» .

- «إنه نقد بنّاء يا حضرة المحقق» .

- «تلعب بالألفاظ» .

- «بل أمارس حقى الديمقراطى» .

- «جاك كسر حُقَّك!!».

- «متشكر.. كل ما فى الأمر أننى رأيت كل إنسان يفكر فى نفسه، وفى زيادة دخله، ففكرت أنا فى زيادة دخل الشعب، حتى ينكمش العجز، ويعتدل ميزان المدفوعات، من هنا أحسست بمسئوليتى نحو الحفاظ على التكنولوجيا وأدوات الإنتاج».

قال المحقق:

- «الونش مرة أخرى؟؟ يا إلهى كم أنت ممل!».

- «هذا واجبى يا بك».

- «إنها مهمة الحكومة..».

- «الحكومة تفكر فى وضعها».

- «الشعب والحكومة شىء واحد يا لوح».

- «من قال ذلك؟».

- «الواقع يا عبد المتجلى».

- «لا أفهم..».

- «ماذا تعتقد إذن؟» .

- «أرى أن الحكومـة فى واد . . والناس فى واد . . ولن يتحقق التلاحم إلا . . » .

قاطعه المحقق مردفًا :

- «إلا بالكرباج . . » .

أغمض عبد المتجلى عينيه حين طوقه السوط ، لم يتأوه ولكن تعبيرات وجهه الذى ازداد شحوبًا وذبولاً كانت أقوى تعبيرًا عن الآلام التى يعانيها :

- «فـعلتم بى هذا كله وأنا برىء ، مـاذا لو كنت حـقـًا مذنبًا» .

- «هل نسيت أننا فى حالة طوارئ؟ !» .

- «كيف أنسى . . إننى أراها فى كل مكان . . فى كفر أبو سـالم . . وفى خـيـزرانة حـضـرة العـمـدة الحـاج إبراهيم صوان . . وفى تصرفات رئيس المجلس هناك . . وأراها هنا فى غاية الوضوح . . نحن فى بيوتنا أعلنا حالة الطوارئ قبل

أن تعلنها الحكومة ويوافق عليها مجلس الشعب بالأغلبية الساحقة . . الطوارئ نغمة . . الحمد لله» .

ابتسم الضابط المحقق فى سخرية وقال :

- «ما هى العلاقة التى تربط الونش بالطوارئ؟» .

- «لولا الطوارئ لما ضاع الونش» .

- «اشرح لنا» .

-«الطوارئ كابوس فى قلب الظلمة . . » .

- «والونش؟؟» .

- «ضحية . . » .

- «تعلم يا عبد المتجلى أن الطوارئ جاءت للحفاظ على الأمن الاجتماعى و . . . » .

قاطعه قائلاً :

- «نعم . . والاستقرار يا سعادة البك» .

- «تعرف إذن» .

- «بالتأكيد، لكن المشكلة أنها جاءت لإعادة الأمن المفقود فإذا بها تبدد وتضيع ما تبقى. . والونش يشهد. . ».

اضجع المحقق، ومدَّد رجليه وهو فوق المقعد «الدوَّار»، وابتسم ثم جلجل ضاحكًا وقال:

- «إما أنك مجنون، أو مثقف معارض فى منتهى الذكاء».

- «قالوا لى فى القرية الجنون فنون».

هب الضابط واقفًا، واقترب منه، وأخذ يدقق البصر، ثم قال فى عطف:

- «اجلس على هذا المقعد واشرب الشاى. . أنت رجل مخلص يا عبد المتجلى ولم أجد أحدًا فى شجاعتك فى هذا المكان. . ».

شكر عبد المتجلى، ثم جلس وهو يقول:

- «ليست شجاعة، ولكنى أحاول أن أعبر عما أعتقد. . ».

همس الضابط فى هدوء غريب :

- «ألا تعتقد أن أفكارك هذه تشكل خطراً كبيراً؟» .

قال فى براءة :

- «أبداً . . قد تساهم فى ارتقاء وعى الناس ، وتعبر عن واجب النصح لأولى الأمر . . » .

- «أتؤمن بالخلافة يا عبد المتحلى؟؟» .

كان السؤال مفاجأة ، لكنه قال :

- «أذكر بيتًا لشوقى» .

- «وما هو يا شاعر الغبراء؟» .

الدينُ يسرٌ والخلافة بيعةٌ

والأمرُ شورى والحقوقُ قضاءُ

- «الله أكبر . . » .

شرب جرعات من الشاى ، كانت الآلام تمضه ، والأسى الممتزج باليأس يجعل الدنيا فى عينيه المرهقتين لا قيمة لها

ولا معنى، ولم يعد يهاب الموت، إذا دعاه الداعى فسوف يهرع إلى السماء فرحًا، لقد آذوا شعوره، ومرغوا شرفه فى التراب، ضربوه بأقسى مما تضرب به الحمير فى القرية، بل إن الفلاح يشفق على حماره، وقد يخوض معركة مع جار له إذا تعرض لحماره بالضرب. . وهو هنا يضرب ويهان تحت سمع وبصر رجال الطوارئ الأوفياء الذين أقسموا ألف يمين ويمين، وصرحوا ألف تصريح وتصريح بأن الطوارئ لن تطبق إلا فى أضيق الحدود، وضد تجار المخدرات والعابثين بالاقتصاد والإرهابيين والمتطرفين.

«كلامك فى مجمله يا عبد المتجلى يعنى أنك ضد الدستور».

هتف فى دهشة:

- «استغفر الله يا سعادة البك!! كيف أعارض دستوراً يستمد شرعيته من شريعة الله؟؟ إننى فقط ضد الذين يخطئون فى فهم وتطبيق القانون؟».

- «فى الواقع يا بك تمنيت ذلك، لكنهم رفضوا انتسابى

للكلية، وطلبوا منى أن أذاكر الثانوية العامة مرة أخرى . . قلت لنفسى يا ولد يا عبد المتجلى القوانين فى الكتب . . والكتب موجودة . . فلماذا لا تتعلم القانون بنفسك؟؟» .

تنحنح الضابط المحقق، ثم قال :

- «هل الحكومة كافرة يا عبد المتجلى؟» .

- «لست من أهل الإفتاء . .» .

- «وبعض إخوانك يكفرون المجتمع . .» .

- «وأنا لا أفعل . .» .

- «لماذا؟» .

- «قد يوصف فرد بالكفر وفق شروط شرعية واضحة، أما تعميم الكفر على المجتمع فإنه ظلم . .» .

- «والجاهلية يا عبد المتجلى» .

- «مشتقة من الجهل» .

- «تعنى عدم معرفة القراءة والكتابة . .» .

- «بعض الأميين على وعى أرقى من بعض حملة الشهادات العليا . . » .

- «تقصد أن الجهل مضاد للوعى» .

- «بالضبط . . » .

- «وما هو مفهوم الوعى عندك يا فيلسوف» .

- «لست فيلسوفًا ، ولكن هناك الوعى الصحى . . والاقتصادى . . والسياسى . . والأساس هو الوعى الدينى . . إنه إرادة . . » .

- «قف هنا . . »

انسكبت الدموع لأول مرة بغزارة من عينى عبد المتجلى ، وأخذ يشهق بصورة فجائية ، وقال فى ضراعة :

- «ارحمونى . . لقد تعبت . . أريد أن أنام . . » .

لم يثبت بالتحريات الشاملة أن عبد المتجلى اشترك فى مظاهرة من المظاهرات ، أو انضم إلى حزب من الأحزاب ، إنه دائمًا مع عامة الناس أولئك الذين يشكلون رأيًا عامًا

بعيداً عن التكتلات السياسية والحزبية، ومبادؤهم توليفة تلقائية تستجيب للأحداث والمشاكل بطريقة واضحة، تنعكس فيما يقولونه من نكات، وما يطرحونه من آراء، وليس من أهدافهم الدخول فى الانتخابات، أو التسابق على المناصب، أو استغلال الفرص، وهم يعيشون فى مجال محدود يضمن لهم العمل والرزق والستر، ينتظرون تموين البطاقات، ومرتبات آخر الشهر، ويفنون أعمارهم كى يعلموا أولادهم، ويدبروا أمورهم على نحو ما، وأفكارهم تخرج مع أنفاسهم إلى الهواء مباشرة.

كان الضابط يعتقد -بعد التحقيقات المبدئية- إن عبد المتجلى لم يرتكب أو يشرع فى ارتكاب جريمة محددة، وإن كان يظن أن رجلاً مثله يحمل تلك الأفكار يخشى من خطره فى المستقبل، وفكر فى أن يتطلب الإفراج عنه، لكن العقبة كانت آثار التعذيب التى تلون جسده وحتى وجهه، ومن الأليق أن يبقى تحت الرعاية حتى يتم شفاؤه، وأن يعامل معاملة طيبة، ويعطى غذاء جيداً، ويعالج مما ألمّ به، ثم تؤخذ عليه الإقرارات اللازمة، ويعاد إلى عمله تحت

الرقابة الدائمة، لكن طبيب الشرطة كان له رأى آخر يضاف إلى الآراء الأخرى، ولا يتناقض معها، فقد اقترح أن يحال عبد المتجلى إلى طبيب نفسى، حيث إن قضية الونش هذه تشى بأن المعتقل لا يمكن أن يكون فى لياقة نفسية كاملة، وأنه مصاب -على الأرجح- بحالة من الأفكار التسلطية الخاطئة، وقد يؤدى العلاج النفسى إلى الشفاء.

اعترض الضابط المحقق وقال:

- «نحن فى مباحث أمن الدولة لا نؤمن إطلاقًا بموضوع الأمراض النفسية بالنسبة لمنظمات العنف والإرهاب؛ لأنه إذا اعتبرنا أن التطرف مرض نفسى فلن يحاكم أحد على الإطلاق، وسوف يسفك الإرهابيون الدماء، وسينالون البراءة كما يحدث فى أمريكا. . المتهمون فى جرائم أمن الدولة أصحاء تمامًا من الناحية النفسية، وقد تتغير نظرتنا بعد صدور الأحكام، حيث نسمح بعلاجهم نفسيًا وهم يقضون فترة العقوبة، وقد ينقلون إلى المصحات النفسية والعقلية عندئذ. .».

لكن رئيس القسم كان له رأى آخر وهو أن عبد المتجلى رجل غامض، ولا بد من مواصلة التحقيق معه، ومحاول الكشف عن خبيئته.

●●●

عادت «رمانة» وابنتها «بدرية» إلى (الكَفْر) بعد عناء وشقاء كانوا يحيلونها من مكان لآخر، والمحامى معها يروح ويجىء ويتصل ويستفسر، وبعد أيام ثلاثة لم يجدوا فائدة فى البقاء بالقاهرة أكثر من ذلك، ولم يعد أمامهم سوى التسليم بما يأتى به الله، وقيل لهم إن عبد المتجلى سوف يفرج عنه قريبًا، وسوف يجدونه وقد أتى إلى القرية فجأة، وفهم المحامى أن البحث أثبت براءة عبد المتجلى من أى تهمة سياسية.

عاد كذلك وفد القرية من المحافظة وعلى رأسهم الشيخ سمعان الطوخى إمام المسجد، والحاج إسماعيل المغربى، وقد ذهلوا عندهما أخبرهم المحافظ أنه لا يعرف شيئًا عن المدعو «عبد المتجلى القصاص»، ولا يهمه أن يعرف، فلديه

من كبريات الأمور ما يشغله عن هذه التوافه التى تحدث كل يوم، كما أن المحافظ أنكر الأقوال وردت على لسان رئيس مجلس القرية وسخر منها، ثم طلب من وفد القرية أن يتوجه بكافة أعضائه إلى مباحث أمن الدولة بالغربية لتقديم التماساتهم، والإدلاء بأقوالهم بأمانة، حول تصرفات عبد المتجلى وقضية الونش، مؤكداً لهم أن صراحتهم وصدقهم هو الأسلوب الوحيد الممكن لحل الأزمة.

حينما عادت «رمانة» ودمعتها على خدها، قدمت النسوة من كل فج يؤدين واجب المجاملة، كما جاءت زميلات بدرية، لكن الأمر الغريب أن «أشرف سليم» قدم هو الآخر، وكان قد فسخ الخطبة من قبل، وأبدى أسفه وندمه، وتحدث بكلام كثير فهمت منه بدرية أنه -مهما كان الأمر- فلاح يعرف الواجب ولا يمكن أن يتخلى عنهم فى وقت الشدة، ورجاها أن تعود المياه إلى مجاريها.

إن صورة القرية اتخذت أضواءً وظلالاً جديدة لم تألفها من قبل، بدت اللوحة أذرعًا تتعانق، وعيونًا لهفى يقطر

منهـا الحب والحنان، وعبـارات وإشـارات تترجم عن الود العميق والإخاء . . ولم يكن أحد يعتقد أن يفيض الحب نهراً دفاقًا على هذا النحو من أجل رجل بسيط، اتهموه بالجنون والخرف والبلاهة . .

لكن أم صابرين كـان لهـا مسـار آخر، لقد سألت عن أشهر المحامين فى السياسة، ومن ثم هرولت إلى مكتب فتحى رضوان المحامى الأشهر، ليرفع قضية مستعجلة ضد وزارة الداخلية .

●●●



مـا أعـجب أمـرهم ، بالأمس حـسب أن المعـاناة انتـهت ، وأنهم على وشك حفظ التحقيق والإفراج عنه لكنهم تركوه كـالقرد الأجرب فى ركب الزنزانة ، «هنا لا قـيـمـة لأحـد» هكذا تحـدث للصـمت والظلام من حـوله ، فلم يسـمع إلا نفثاته المحـمومة ، تذكر الصـفعات على وجهه ، كل شىء يهـون بعـد ذلك ، الذين يتـحـدثون عن كـرامـة الإنسـان ، وحقوقه المقدسة بلهاء ؛ لأنهم لم يتعرضوا لمرارة التجربة بعـد ، تمتم «هنا المدرسة التى يمكن أن يتعلم فـيهـا الإنسـان التطرف على أصوله إذا كان للتطرف أصول . . أنا شخصيًا أعترف أنه تراودنى خيالات رهيبة مجنونة . . يا إلهى ! ! ما عرفت ذلك الحقد الذى يعتمل فى نفسى قبل ذلك . . أتمنى

لو أن معى مثقابًا كهربائيًا . . «شنيور» لأغرزه فى عيونهم وآذانهم وأمخاخهم، ثم أجلس لأراهم يتعذبون . . بل ليتنى أستطيع أيضًا أن أجدع أنوفهم، وأصم آذانهم، وأقتطع شفاههم بالمقاريض، وأقُصُّ ألسنتهم وأرمى بها للكلاب الضالة . . مستحيل أن يحدث ذلك . . لقد وضعوا عصاة فى دبرى . . لماذا لا تنقض صاعقة من السماء تحرقهم أو تداهمهم طير من أبابيل ترميهم بحجار من سجيل؟؟ أنا لا أعرف بالضبط حتى الآن لماذا يفعلون ذلك . . ولمصلحة مَنْ؟؟ والكارثة أنهم يضحكون، ولا يخالجهم أدنى ندم أو أسف . . إن أسمع الأنين من حولى بالغرف المجاورة . . الموت دفعة واحدة أسهل من ذلك، أما أن أموت ببطء قطعة قطعة . . وتموت مشاعرى وأحلامى فهذا فظيع!! لشد ما أشعر بالقرف والاشمئزاز والغثيان حينما أتذكر أولئك الذين كانوا يتحدثون بالأمس عن الحب والحرية والعدالة . . هذه الأرض القاحلة لا يمكن أن تنبت إلا الشوك والحنظل . . إن التطرف الذى يتحدثون عنه، ويتهموننى به لا يولد إلا فى هذه الظلمة، ولا ينمو ويترعرع إلا فى أعماق

تلك الغابة . . قالت لى «أم العواجز» إنهم قتلوا الحسين . . حفيد أشرف خلق الله . . وكل يوم يقتل الجاهلون أبناء الحسين . . لكن «الحجاج بن يوسف» لم يمت . . إن نسله يحكمون الأرض حتى هذه الساعة . . وإلى أن تقوم الساعة . . يهتفون ويصرخون «الموت للخونة» ، لكن الخونة لا يموتون . . وشرف الشهادة يمنح للأطهار وحدهم ، حتى لكأن الله يريد أن يأخذ أحبابه قبل أن ينالهم التلوث ، أو ينحرف بهم الشيطان ، ذلك لأن الله يحب الشهداء . . والموت فى هذه الحالة أعظم حب . . إننى أمد إليك يدى يا إلهى . . ألا تأخذنى إليك؟؟ ألا تأخذنى إليك؟» .

قال له الضابط المحقق :

- «لعلك وعيت الدرس» .

قال عبد المتجلى حزينًا :

- «أجل . . » .

- «ستعترف حتمًا» .

- «بماذا؟؟» .

- «أنت أدرى».

- «أما زلتم تشكون فى أمرى؟».

- «الشك عصمة..».

- «بل هو فى صالح المتهم».

- «هذه القاعدة لا تنطق علينا هنا».

- «وماذا أفعل حتى تتركونى؟».

- «تعترف.. قل أى شىء..».

- «أقسم أننى لم أفكر إلا فى الونش المفقود، وكنت أنوى..».

قاطعه فى غضب:

- «لا تذكر الونش مرة أخرى.. هذه قصة سخيفة لا تنطلى على».

- «وإذا لم يكن لدى ما أقوله؟».

- «لديك الكثير يا عبد المتجلى.. حدثنا عن أصحابك.. عمن تعرف ميولهم.. طباعهم..

أخبارهم. . اتجاهاتهم السياسية. . قل. . تكلم بأى شىء. . المهم أن تتكلم. . ».

صمت عبد المتجلى برهة، ثم قال:

- اكتب عندك. . حضرة العمدة «إبراهيم صوان» لص محترف، وملفق ومزور. . رئيس مجلس القرية منافق ومختلس ومرتش. . أمين الحزب فى بلدنا كل مؤهلاته أنه نسيب وقريب. . وأنه سمسار، ويبيع التموين فى السوق السوداء. . شيخ الخفراء يتستر على اللصوص ويقاسمهم غنائم الليل، ويشهد لصالحهم عندما تلتصق بهم التهم. . الحاج «إسماعيل المغربى» رجل صالح يحفظ الكتاب، ويؤنس الأحباب، والشيخ «سمعان الطوخى» يلتزم بأوامر الأوقاف والداخلية، وخطبته فى المسجد لا تخرج عن الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. . الحاجة «بياض» تخرج أموالها بالربا ولا ترحم. . «سلامة» المغير يبيع المخدرات جهاراً نهاراً هو وزوجه «ريحانة» ولا يتعرض له أحد. . وحضرة العمدة يعرف. . ورئيس المجلس يعرف. . وأنا رفعت الشكاوى إلى المسئولين، فاقتادونى إلى مركز «زفتى»

فتكرموا علىّ بعلقة ساخنة على قدمى . . لكنها أدنى بكثير جداً من العلقة التى تشرفت بها هنا . . » .

صرخ الضابط المحقق :

- «كـــــــفى . . لعنة الله عليك وعلى أهل بلدك أجمعين . . » .

نظر إليه عبد المتجلى نظرة تطفح كراهية ، ثم قال :

-«هؤلاء هم المتطرفون فى بلدنا . . » .

- «اسكت وإلا سحقت رأسك . . » .

خرج رجل من خلف خزانة الملفات وقال ضاحكًا :

- «هذا الحيوان كلامه صحيح . . » .

يبدو أن الضابط المحقق استخف التعليق ، لكنه لم يرد على زميله ، قد كان فى حيرة من أمر عبد المتجلى الذى لم يستطع أن يجد دليلاً واحداً على انتمائه لإحدى الفصائل الإسلامية ، كما لم يوفق إلى العثور على شاهد واحد يقدم قرينة على اتهامه ، إن ذلك يعنى أن التحريات كانت

مضللة، وأن جهوده فى الضغط عليه كى يعترف ذهبت هباء، وأخرجه من حيرته صوت زميله الذى قال فى شىء من السخرية:

- «لعله شيوعى».

قاسه المحقق بنظراته الفاحصة، وقال:

- «الشيوعيون لا وزن لهم ولا قيمة، هم مجموعة من أدعياء الثقافة المغرورين.. تجربتهم أيام عبد الناصر كانت فاشلة، وقضت عليهم..».

ثم التفت المحقق الضابط إليه، وقال:

- «ما رأيك فى الشيوعيين؟».

- «قريتنا برغم كل النقائص التى فيها - تؤمن بالله، وليس لها علاقة بأى جهات أجنبية».

- «أليس فيها شيوعى واحد؟».

- «لو حدث لما كان منا».

-«لماذا يا عبد المتجلى؟؟ ألا تؤمن بحرية الرأى؟».

- «أؤمن بحرية الرأى التى لا تصل لدرجة الكفر . . » .

- «هأنتذا ترمى الناس بالكفر» .

- «لأن الشيوعية الحقيقية لا تؤمن بالخالق، والإسلام فى الدستور هو مصدر التشريع . . » .

- «ونحن؟؟» .

- «مَنْ أنتم؟؟» .

- «الحكومة . . » .

- «أدعو لكم ولنفسى بالهداية» .

- «هل لديك أقوال أخرى؟؟» .

- «أكرر مطالبتى بالبحث عن الونش المفقود . . » .

وضحك الجميع بما فيهم عبد المتجلى برغم الآلام التى تعتصر قلبه وتلهب جسده .

ارتسمت سمات الجد على وجه عبد المتجلى، وقال :

- «يقول سيدى وسيدك : من روّع آمنًا روعه الله يوم القيامة» .

ارتجفت يد الضابط الممسكة بالقلم، وقال:

- «مَنْ سيدك؟؟».

- «المصطفى..».

ارتج على السائل، وابتسم المسئول، وتلعثم القائم إلى جوار خزانة الملفات، وانسابت دقات الجرس فى هلع، وقدم كوكبة من المخبرين المكشرين عن أنيابهم، وأحاطوا بعبد المتجلى ينتظرون الأمر.

- «لاتمسوه بسوء.. وأكرموه».

تحير الرجال، فالكلمات هناك كثيراً ما يكون لها معنى مضاد، فعدم المساس يعنى المساس، والإكرام يعنى الضرب المبرح، ويبدو أن الضابط فى انفعاله نسى هذه القواعد البديهية التى ساروا عليها منذ عشرات السنين دون تغيير يذكر، لكنه استوعب الموقف حينما سمع زعيم الزبانية يقول:

- «سوف يتلقى منا الكرم الزائد..».

أرغى وأزبد، وأمرهم بوضوح ألا يتعرضوا له بأدنى أذى، وأن يسمحوا له بالصحف والطعام الجيد والذهاب إلى الحمام وغسل ملابسه، والتريض ساعة فى حوش المعتقل. . وسرعان ما تغيرت السحنات، وحلت الابتسامات محل التجهم والتحدى، وقال زعيم الزبانية: «تفضل يا أستاذ عبد المتجلى».

تمتم «أستاذ بعد هذا كله؟؟ وماذا بمصر من المضحكات؟. . ولكنه ضحك كالبكاء».

لكنه والحق يقال شعر بإيقاع جميل مفرح لكلمة «أستاذ» إنها تعيد إليه آدميته وثقته الضائعة. . ثم إنها تفتح باب الأمل للنجاة، هذا إذا لم يغيروا رأيهم بعد ساعة، فيتحول «الأستاذ» مرة أخرى إلى كلب بن كلب «لطفك يا صاحب اللطف».

قال له أحد المخبرين وهو يقدم له جريدة الصباح:

- «تعلم أننى لا أضمر لك شراً».

حك عبد المتجلى قفاه، وقال وهو يبتسم فى مرارة:

- «أعلم . . أنت تنفذ الأوامر . . » .

- «بالضبط . . » .

- «وأنك مثلى تمامًا مظلوم» .

- «وصاحب عيال . . » .

- «هو ذاك . . » .

- «وأنك كنت تضربنى وقلبك ينزف أسى» .

- «سبحان الله . . إنك تتكلم بما فى قلبى . . » .

سدد إليه عبد المتجلى نظرات جامدة ، وقال :

- «ومع ذلك فلن ترد على جنة . . » .

قال المخبر فى دهشة :

- «لماذا يا سعادة البك؟» .

- «لأنك كنت تضربنى بإخلاص» .

قال المخبر فى حزن :

- «لن تفهم لأنك لم تعش حياتنا . . » .

توضـأ وصلى، غـاب عن الوجـود المادى من حـوله، وانطلقت روحه إلى آفاق عليا عذراء يرتاتدها لأول مرة، لا يعرف حلاوة الماء إلا من أهلكه الظمأ، ولا روعة اللقاء إلا من أمضه الحرمان، ولا جمال الحق إلا من أحرقه الظلم، أدرك بيقين- هذه المرة بالذات- أن ليس له نصير إلا الواحد الأحد؛ لأنه لا ينام ولا يغفل ولا يتخلى عن عبيده، ولن تحول بينه وبينهم أسوار، إن باب الله مفتوح دائمًا، وليس عليه حراس مدججون بالسلاح، يطلقون الرصاص، أو يضربون الناس «بأذناب البقر»، ويسمحون لهذا ويمنعون ذاك، الباب الوحيد الذى يظل مفتوحًا دائمًا.. تمتم: «وأنا رجل على باب الله».. يخيل إلى أن هذه هى الديمقراطية الحقة التى يحلم بها البشر من آلاف السنين.. إنها ليست لغزًا، وهى طوع يمينهم.. لكنهم فى عمى عنها، يجرون وراء النظريات، ويمعنون فى حفظ المصطلحات وتفسيرها وتحليلها، بذلك أصبحت طلسمًا، وأصبح لها فى كل أرض فلاسفة ومفسرون..

قال له المخبر:

- «يقولون إنك تستطيع أن تحضر لنا عقد عمل من الخارج . . ».

- «لا تتعلق بالأوهام يا عبد الله».

- «الحياة صعبة ، والذرية كثرت ، والحال كما تعلم وحياتنا كما ترى حرام فى حرام ، وظلم فى ظلم . . ».

- «إن صبرت نلت . . ».

- «عدنى . . حتى أتوب».

- «قل رب . . ».

- «يا رب . . ».

- «قلها من قلبك يا أومباشى بدران».

- «يا رب . . من كل قلبى».

نام بعمق ، بعد أن أكل وشرب ، تذكر الأيام الحلوة فوق البيت المملوكى القديم مع بيومى فى حى السيدة ، حيث القمر الطالع والسماء الصافية ، وأوراد الذاكرين ، وأغانى المنشدين . . تذكر أم صابرين الصابرة ذات القلب

الكبير . . البسيطة التى تشق طريقها فى الصخر دون خوف . . آه . . كانت أيامًا قليلة لكنها جميلة . . وعاد بذاكرته للمرة الألف إلى القرية الناعسة وسط البحار الخضراء، وفيها المآذن والأشجار الضخمة ومجالس الكلام . . تذكر أمه رمانة . . تأكل بدون أسنان . . ولا تعرف إلا العمل والدعاء ودموع الذكريات على الراحلين . . وهناك بدرية التى تتدفق حيوية وجمالاً وأملاً . . وتنتشر على أحر من الجمر العريس وخطاب القوى العاملة . . لا شى يشوه الصورة الجميلة سوى مصاصى الدماء . . دراكولا وزبانيته من السماسرة واللصوص وتجار المخدرات ومحترفى السياسية فى تنظيم القرية، وذئاب الجمعية الزراعية التعاونية . . أليس من العجيب أن يدان كل رؤساء الجمعية السابقين، وتلحق بهم التهم أو الشبهات منذ إنشاء هذه الجمعية فى الستينيات حتى يومنا هذا؟؟

«العابثون يمرحون» هكذا قال عبد المتجلى لنفسه، ثم استطرد «والأبرياء يتجرعون العلقم . . لكأن عذابات هذه

الدنيا صورة مصغرة جداً لما سيحدث فى جهنم. . إن ما يجرى من ظلم مجرد ابتلاء من الله لحكمة يعلمها هو، وربما يكون منها أن يذكرنا بما ينتظر الظلمة والمتجبرين. . ».

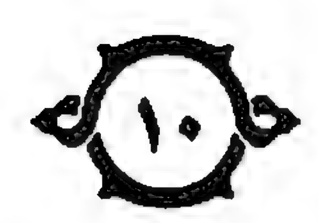
لقد قرأ عبد المتجلى الكثير من الكتب، وظن أنه قد علم الكثير من ثمرات العقول قديمًا وحديثًا، لكنه يصطدم كل يوم بأشياء لم يجدها فى الكتب، وربما يكون قد قرأ قدراً عن الظلم والقهر والتعذيب، لكن انفعاله به كان بدائيًا ساذجًا. . ربما بكى آنذاك وهو يقرأ، لكن سرعان ما تجف الدمعة. . وعندما وقع فى وكر الذئاب وذاق بنفسه التجربة وجد الفرق هائلاً بين ما قرأ وما حدث له. . تذكر كلمات لبائع كتب عجوزاً «يا بنى. . إن زبائنى أغلبهم من الفقراء وطلبة العلم. . ملوك الانفتاح لا يقرأون الكتب. . ولا حتى رجال السلطة. . إنهم لا يحترمون الكلمة المكتوبة إلا إذا كانت أوامر صادرة من أعلى. . وهذه ليست كلمات تزيدك معرفة. . لو قرأ أصحاب الملايين لأفلسوا، بل لما أصبحوا يملكون ذلك كله منذ البداية. . لكى تنجح فى

الحياة يجب أن تنشئ لنفسك علومًا خاصة بك. . الحياة الفاسدة تتمرد على المعرفة والقيم. . ».

يومها قال عبد المتجلى: «ليكن، فإن السعادة القصوى التى أشعر بها حينما أكتشف فكرًا جديدًا، والمتعة التى أنتشى بها بعد قراءة قصة أو قصيدة، لا توزن بالذهب. . هذا هو الثراء الحقيقى. . ».

كان موقنًا أن الذين لا يقرأون محرمون وإن كانوا لا يدركون ذلك الحرمان.

●●●



قضى بضعة أيام بدون إزعاج، عامله العسكر بروح ودية طيبة تبدو غريبة أو غير مألوفة، إنهم ينادونه باسمه بل ويسبقونه بلقب أستاذ أو باشمهندس، ويبتسمون فى وجهه، ويتبادلون معه النكات، وانتهت- كما يبدو- فترة التجريح اللفظى والإساءة البدنية، لكنه فى قرارة نفسه كان يتوجس خيفة، إنهم هنا مثل زوابع «أمشير» قد يثورون فجأة، وتنقلب الأمور رأسًا على عقب، لم يعد يثق ألبتة فى أحد منهم، فهم بلا منهج واضح، ومتقلبو المزاج، ويظهر أنه ليس هناك من يحاسبهم على تفاصيل تصرفاتهم اليومية، ولا عن أساليب الضغط غير المشروعة، إن ما يهمهم هو المعلومات، ولكن تلك التى تتفق مع أهوائهم

وأمزجتهم، وكثيراً ما يصدرون قرارات ثم يتراجعون عنها لمجرد الظن أو ظلال من الشك الواهى، ولذلك فإن عبد المتجلى كان حريصًا، بمعنى أن يقتصد فى آماله الحلوة، وسوء الظن وخاصة مع هؤلاء الناس عصمة، لقد رأى أنهم يلعبون بعواطف الخلق، ويتركونهم نهبًا للدفع والجذب، والأمل واليأس، حتى تتحطم كل الحصون الداخلية، ويصبح المرء ألعوبة بين أيديهم، ويفقد مقومات ثباته وكرامته، ولقد رأى أيضًا ضحايا يركعون لغير الله، ويتوسلون من شدة العذاب، كانوا مسخًا شائهًا. . وآخرين صمدوا حتى النهاية. . رأى العجب العجاب، ولم يكن يستطيع أن يميز جيدًا بين ألوانهم الفكرية والسياسية، كان كل شىء غامضًا ومتشابكًا. . . الشىء الوحيد الذى يربطهم هو الاتهام بارتكاب جرائم ضد أمن الدولة.

لهذا بقى عبد المتجلى نهبًا للقلق والترقب، لم تعد المسألة مسألة ونش مفقود؛ لأن عبد المتجلى يشعر أنه قد يفقد نفسه هو الآخر، وعندئذ سيفعلون به ما فعلوا بالونش، ويقيدون الحادث ضد مجهول، مع أن الفاعل

الآن معلوم مائة فى المائة، لكن من يقرأ ومن يسمع ومن يشهد؟؟ فليس هنا صحف ولا إذاعة ولا تليفزيون ولا أعضاء من المعارضة فى مجلس الشعب، ولا مندوبون عن النقابات أو الفلاحين أو العمال الذين يشكلون خمسين فى المائة من المجالس. . إن النوعية الوحيدة الموجودة فى هذا المكان فئة واحدة لها وجهة نظر محدودة، والقانون مجرد شرطى تحت الاستدعاء لقضاء مهمة محددة أيضًا. .

ومع ذلك فقد حالفه الحظ إذ جاءه الضابط المحقق وقال فى سعادة:

- «مبروك يا عبد المتجلى. . لقد صدر أمر بالإفراج عنك. .».

أصبح الحلم حقيقة. . لم يستوعب الخبر جيدًا، كانت الفرحة أكبر من أن يسعها قلبه الملآن بالمشاعر المتضاربة المائجة، لكنه سرعان ما استعاد توازنه، وابتسم كطفل، وتمتم:

- «شكرًا يا سعادة البك».

- «لا شكر على واجب، لقد تبين لنا أنك مواطن شريف، نحن لا نظلم أحداً، لكن الظروف تضطرنا لاتخاذ بعض الإجراءات الضرورية حتى نكتشف الحقيقة . . ».

قال عبد المتجلى :

- «نعم الحقيقة . . ».

وأمسك الضابط بكتفه فى رقة وقال فى رجاء :

- «إننى آسف لما قد يكون آذى شعورك، أنت تعرف أوضاع البلد، وهذا يدفعنا لبعض التصرفات التى نكرهها فى الواقع . . نعم . . لكنها ضرورية أحيانًا، وهى لصالح المتهم المظلوم . . وأرجو أن تعدنى بألا تذكر شيئًا عن ذلك أمام أحد . . ولا حتى زوجك . . إن هذا يسىء إلينا، ويضعنا فى موقف حرج . . ثم إن أحداً لن يصدق مزاعمك . . أتفهمنى؟؟ . . ».

طأطأ عبد المتجلى رأسه، وكز على أسنانه، وقال بصوت مبحوح :

- «أفهمك».

وقدم له الضابط سيجارة، لكن عبد المتجلى اعتذر وشكره، موكدًا له أنه لا يدخن، وعاد الضابط يقول:

- «قد يحرضك أحد من رجال المعارضة على أن ترفع قضية تعويض وما إلى ذلك».

- «تعويض؟؟ عن ماذا يا بك؟».

- «عن فترة الاعتقال!! وعن الإيذاء.. إلخ لكن هذا مضيعة للوقت، فضلاً عن أنه يسىء إلى العلاقة الحميمة بيننا وبينك.. ونحن فى حـــالة طوارئ يا ابنى.. هل تفهم..».

- «بالتأكيد.. التعويض هو إطلاق سراحى.. هذا يكفى».

- «والونش يا عبد المتجلى؟؟».

- «ماذا عنه؟؟ هل عثرتم عليه؟؟».

- «يجب أن تنساه تمامًا».

- «وكيف؟؟».

- «هذه أوامرنا . . » .

- «لا بد أن يعود الحق لأهله» .

- «هذا واجبنا نحن يا عبد المتجلى . . هناك مسائل من صميم عمل السلطة ، وليس من اختصاص الأفراد ، والخلط بين واجبات الفرد والسلطة خروج على القانون والنظام . . » .

- «نحن والسلطة شيء واحد» .

- «لا يا عبد المتجلى . . إنهما شيئان منفصلان» .

- «فهمت . . » .

- «تعجبنى . . » .

●●●

فى المساء نودى على عبد المتجلى ، وأخذوه فى سيارة مغلقة عليها حراسة مشددة إلى مكان ما لا يعرفه ، دق قلبه من الخوف ، هو دائمًا يشك فى نواياهم ، ترى متى تنتهى هذه الأيام السوداء؟ لكن ما رآه بدا ما بذرته الشكوك فى

رأسه من أوهام، لقد رأى أم صابرين بلحمها ودمها وإلى جوارها بيومى الرفاعى «درويش السيدة زينب» والأسطى حنفى المتولى السائق السابق للونش المسروق.

كما رأى مندهشًا شيخ الخلوة الرجل الطاهر الزكى، وتلقفته الأذرع الثمانية الدافئة، وأحاطت برأسه وعنقه وجسده، لشد ما شعر بالأمن والهدوء والاسترخاء، حتى لتمنى أن يسترخى وينام على هذه الأذرع الحانية بعد أن طال به الأسى والسهاد، ولم يستطع عبد المتجلى أن يحبس طوفان مشاعره، فانهمرت الدموع بغزارة وأخذ يشهق بصوت عال، وانتقلت العدوى إلى الأحباب القادمين لاستلامه، فبكوا أيضًا، وتساقط الدمع من لحية شيخ الخلوة، لكن أم صابرين زغردت على الرغم من فيضان عينيها، وابتسم الأسطى حنفى وهو يجفف أهدابه المبللة، أما بيومى فقد سيطرت عليه موجة دافقة من «الدروشة» وأخذ ينشد:

يا رايحين للنبى الغالى

هنيئًا لكم وعقبالى

ومع أنه كـان يتطوح كـما يفعل المجاذيب، إلا أن بريق الدموع كان يتلألأ فى عينيه وعلى خديه . .

قال شيخ الخلوة وهو يرفع يديه إلى السماء :

- «ادعوا بالنصر للسلطان» .

ولم يدر أحد هل استجابوا أم لا ، لكنه هو نفسـه لم يجد الوقت للدعاء إذ تَانوا على عجلة من أمرهم ، وقال الشيخ :

- «لنرحل . . إن عبد المتجلى فى حاجة ماسة إلى الراحة فى بيته» .

أوصلوه مع زوجه إلى بيته ، ثم انصرفوا . .

ألقى بجسده المنهك على أريكة خشبية فى الصالة ، وهو يحمد الله ، ثم أخذ ينظر إلى ما حوله نظرات عائمة غائمة ، هذه «سورة يس» كـما هى فى إطارها النحاسى ، وصورة تذكارية للزواج فى إطار آخر ، وعلى اليسار صورة ملونة «للونش» كان قد قصها من إحدى المجلات الأسبوعية ، وسجادة قطيفة معلقة قبالته على الحائط وعليها صورة

الكعبة المشرفة، وطبق بلاستيكى مرسوم عليه قبة الصخرة بالقدس الشريف، ثم هناك صورة صغيرة لمجتهد أفغانى بزيه الوطنى يحمل مدفعًا رشاشًا . .

جاءه صوتها :

- «هذا يوم عيد . . لقد أعدت لك زوجين من الحمام المحشو» .

توجه بنظراته الوالهة إليها، وقال :

- «لقد شبعت منذ أن رأيتك» .

- «أعرف أنهم يجوعون المعتقلين . . » .

- «كان الله يطعمنى ويسقينى» .

- «لكنى أراك ازددت نحافة . . » .

- «الهموم ريجيم غذائى . . » .

- «ريجيم الندامة والحسرة . . » .

- «أين صابرين؟؟» .

- «سألت عليك العافية . . هي في عطلة عند جارتنا . .» .

- «وأخبار أمي . .» .

- «كلهم بخير . . خجلت أن أذهب إليهم وحدى لأول مرة . .» .

- «الواجب أن أذهب إلى البلد على الفور . .» .

- «بالطبع . . لكن لا بد أن تستريح يومًا أو يومين . .» .

كان يظن أنه سوف ينام دهرًا ليعوض أيام الألم، وليالى الأرق، لكنه أفاق بعد ساعتين كأنشط ما يكون، أطل من الشرفة إلى العالم النائم الساكن، أطربه جمال السكون والسلام المترامى بين السماء والأرض، شعر بأنه فى نعمة كبرى يمتصها كالرحيق الحلو، فتسرى فى كل ذرة من كيانه، إنها نشوة من نوع غريب، إنه يتمازج بالعالم من حوله ويذوب فيه، ويناجيه فى حب فريد، ربتت أم صابرين على ظهره من خلفه فى حنان الأنثى، نظر إليها فى ضباب الضوء الخافت، بدت له كملكة جمال بابتسامتها العذبة، وروحها

النابضة، ونفذ عطرها إلى أنفه، استشعر فى داخله شوقًا عارمًا من نوع خاص، أسلم قياده لهذه العاطفة الجياش.. قديمًا قرأ بيتًا من الشعر.

لا يعرف الشوق إلا من يكابده

ولا الصبابة إلا من يعانيها

الألم مرير لكنه مفيد، والحرمان شقاء لكنه يعمق معنى الارتواء والشبع الحقيقى، لم يكن ليعرف نفسه ويعرف العالم على هذا النحو الجديد إلا من خلال تلك التجربة القاسية، ويبدو له الآن أن المعاناة الصعبة هى الوسيلة الأقوى للدخول إلى دنيا المعرفة والحقائق والتذوق الأصيل، إنه يكتشف مجاهل كانت مطمورة فى ذاته وفى الناس والحياة، فى الطفولة كان يخاف الذئب والضياع والغولة بدون أن يرى أيًا منها، وقديمًا حدثوه عن «السمّاوية».. نعم إنه يتذكر ذلك، حينما بكى طويلاً لكى يسمحوا له بالذهاب إلى مولد «سيدى أحمد البدوى» فى طنطا، قالوا له إن ذهبت وحدك فسوف يتلقفك «السماوية»

مَنْ هم السماوية؟؟ هم أولئك الذين يخطفون الأطفال ويذبحوهم بعد أن يجرعوهم «السم»، ثم يعتصرون دماءهم ويجمعونها فى زجاجة يشربها اليهود، أو يعجنون بها فطير العيد.. يومها استولى عليه الرعب القاتل، وظل ذلك الإحساس يخالطه حتى بعد أن كبر وبلغ سن الرشد، إنه يرتجف بدون أن يدرى كلما سافر إلى طنطا.. إن ظلالاً من الرعب القديم لم تزل تعبث بخياله برغم مرور السنين وسذاجة الخرافة..

إن ذهنه أصبح مسرحًا لآلاف الصور والذكريات، تحاصره وتطارده، ترى هل هذا هو الخلل الذى يزعمون أنه من سمات الخارجين من السجن؟؟ يجب أن يشغل نفسه بأى شىء آخر، وعليه أن ينسى أو يحاول أن ينسى تلك الأيام الصعبة المريرة، وينطلق إلى أيام جديدة، وستكون البداية السفر إلى كفر أبو سالم، ليرى أمه وأخته والناس الطيبين هناك، ولا شك أن أهل (الكفر) قد وجدوا من مأساته مادة جديدة للثرثرة.. لشد ما اشتاق إلى اللقاء، وإلى «الكلام» مع أهل «كفر كلام» الذين ينفسون عن

أحلامهم وهواجسهم من خلال القناة الوحيدة التى يمتلكونها، ويبثون فيها همومهم، ويؤكدون ذاتهم، من المهم جدًا أن يتكلموا.. وإلا انفجروا.. والكلام لا يكلفهم شيئًا..

●●●

قال عبد المتجلى وهو ينظر إلى السماء، ويحرك رأسه فى رتابة يمنة ويسرة:

- «لو كان الونش رجلاً لدخل الجنة.. نعم.. لماذا؟ لأنه رضى رضاء تامًا بتسخير الله لخدمة البشر أولاً، ولأنه يطيع الأوامر الصادرة إليه بخصوص العمل، ولا يشكو أو يتبرم.. والعمل عبادة، هذا ثانيًا، ولأنه لا يأكل أكثر من القوت الذى يكفيه لا يعرف الشراهة، ويتمرد على التخمة، هذا ثالثًا، ولأنه مطيع برىء كطفل لم يزده الكبرياء أو الغرور.. بسيط، متعاون، ويحمل الأعباء عن الإنسان.. ولو بقيت أستطرد فى ذكر محاسنه لما انتهيت أبدًا.. يرموننى بالجنون لأنى أبحث عنه.. الجنون هو أن نتركه

يضيع. . إن بينى وبينه علاقة عشق من نوع خاص. . أذوب فيه كما يذوب فىّ. . يخيل إلى أن الحديد الذى يجرى فى دمى من صنف حديده. . ماذا لو لم يكن حديده فى دمنا، إذن لأصبنا بالأنيميا. . ».

قالت أم صابرين متحسرة:

- «لو أحببتنى كما تحب الونش. . ».

قاطعها قائلاً:

- «أنت والونش شىء واحد».

ظنته يعرض ببدانتها، فقالت محتجة:

- «إن بدانتى من النوع الرشيق».

ابتسم وقال:

- «الحب لا يوزن بالكيلو، فهو ليس مادة».

- «وأنا. . ».

- «حلوة. . رقيقة. . قلبك كبير أخضر كحقول الحنطة الخضراء فى بلدنا. . أشعر فيه بالأمن والحب والجمال. . ».

وبعد فترة صمت قال:

- «لم أكن أبحث عن قطع من الحديد. . أنا أبحث عن روح».

قالت مداعبة:

- «طلعت روحك. . ».

- «العقل. . الإيمان. . الجمال».

قالت وهى تلقى برأسها على صدره:

- «الثلاثة رهن إشارتك. . ».

ضمها إليه فى حنان، وقبّل وجنتها وقال:

- «يا ظلى الحنون».

فاجأته بقولها وهى تقرصه:

- «العادة انقطعت. . ».

لم يفهم، أخذ يدير الكلمتين فى رأسه، ويحاول أن يستشف معنى ما تقول فعجز، وقال:

- «أية عادة؟؟»،

- «بعد بضعة شهور سألد لك ونشًا صغيرًا جميلاً».

دق قلبه، أفاق من أحلامه، نظر إليها مستطلعًا، جاءه صوتها:

- «قلبي يحدثني بأنه سيكون لصابرين أخ».

- «كيف؟؟».

- «أنه أمر يحدث للناس كل يوم..».

اجتاحت قلبه موجة عارمة من الفرح، أخذ يضحك في هسترية، ويضرب كفًا بكف، أفكاره تبعثرت، تلاشت كل الصور القديمة، وذابت مرارة السنين، ووثب إلى خياله وجه صغير.. حلو.. يمص أصابعه..

●●●

قال له شيخ الخلوة في حي السيدة:

- «تعبت كثيرًا يا ابن رمانة».

- «أجل يا شيخنا . . » .

- «أما آن الأوان لتنضم إلى ركبنا» .

- «ليس فى استطاعتى» .

- «لماذا يا عبد المتجلى؟؟» .

- «الخلوة تخنقنى ، وضوؤها الخافت يغشى بصرى» .

- «إنها أرحب من كل الدنيا ، والنور فى القلب» .

- «وأنا ابن طريق يا شيخى الجليل ، والصوامع مرتبطة فى ذهنى بالزنازين . . معذرة . . فى المدينة مائة ألف طريق وطريق . . سأمشى فى عز الظهر ، وفى قلب الظلمة . . أدق الأرض بأقدامى . . إذا أنا حصرت نفسى فى الصومعة . فمن يزرع الأرض ، ويبحث عن «الأوناش» المفقودة . . إن لله عبادًا اختصهم بقضاء حوائج الناس . . هكذا قال المصطفى . . كما أتعشق أن أكون منهم . . » .

- «ستعانى وتعانى . . » .

- «إنه قدرى» .

قال الشيخ ووجهه يشرق بالسعادة :

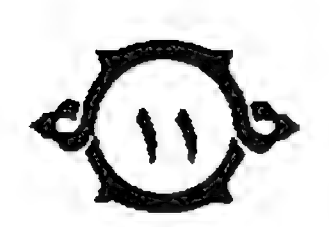
- «قد عرفت . . فالزم» .

عرج إلى الشارع المكتظ بالخلق، كل شىء على حاله، صياح الباعة، وغمزات الشباب، وعطر النساء، وهمزات الشياطين، وابتسامات الملائكة، ومرح الأطفال، وتسابق السيارات والحافلات، وباعة الصحف يثبون كالبهلوانات، والأوناش يعلو ضجيجها، وأغانى المذياع والكاسيت، وعربات اليد الصغيرة تتراكم فوقها تلال الكوسة والطماطم والبرتقال والجرجير، وأصوات ضارعة «لله يا محسنين»، ونداءات ملحاحة «كله بربع جنيه.. قبل ما يلعب.. الله الله يا بدوى جا باليسرى..»، وأحد الحواة يتوسط حلقة من الناس، ومعه قرد مطيع يتواثب، ومجذوب يصرخ «وحّدوه.. حى لا يموت.. نظرة يا أم العواجز» .

وعلى الرغم من الضجيج فقد كان عبد المتجلى يستشعر مذاق السعادة . . لقد خرج من القُمْقُم . . إنه يستمتع بالحياة . . يبعث من جديد حيًا يرزق، يستطيع أن يمارس

هواية السير ، له مطلق الحرية أن يميل يساراً أو يتجه يميناً ، يبطئ أو يسرع ، لم يعد يشعر بذلك الثقل الذى عانى منه بين الجدران الأربعة . . كل شيء يمضى . . ويذهب مع العمر الذى ذهب . . كل لحظة جديدة ، لا آفة للجديد إلا أن نكبله بأحزان الأمس ومآسيه . . عين العقل أن يحاول تطبيع علاقاته مع الدنيا . . إن كلمة «تطبيع» فى أصلها جميلة ، لم يتضايق منها إلا بعد أن وردت فى اتفاقية «كامب ديفيد» . . إنهم يشوهون الوجه الجميل للكلمات . .

●●●



سادت البلدة موجة عارمة من الفرح والدهشة عندما سرى نبأ قدوم عبد المتجلى، وغمرت السعادة قلوب الأهالى نساءً ورجالاً وأطفالاً، حتى بدا الأمر وكأنه ظاهرة اجتماعية غريبة فى حاجة إلى الدراسة والتحليل، فعبد المتجلى ليس بالشخصية الكبيرة المهمة فى القرية إذا قيس بالمقاييس العصرية المتعارف عليها اجتماعيًا وسياسيًا، فضلاً عن أن القضية التى ينافح من أجلها قضية -تبدو للكثيرين- مثيرة للضحك والسخرية، ثم هناك موضوع زواجه المفاجئ الذى يفجر الكثير من علامات الاستفهام، وكذلك حادثة القبض عليه التى أخافت البعض، وثبت الشجاعة فى قلوب

البعض الآخر، وهناك أيضًا الإفراج المفاجئ عنه، وهو في القرية يعنى الانتصار والنشوة حتى بالنسبة للقتلة الذين سفكوا الدماء، وتباينت التعليقات هنا وهناك في أنحاء «كَفْر أبو سالم» المغرمة بالكلام والتعليقات والفلسفة بمفهومها الشعبى.

قال حضرة العمدة عندما تأكدت له هذه الظاهرة:

- «إن أهل البلدة مجانين مثله.. وجهلاء أيضًا، ولا يقدرون العواقب.. وعندما يصل عبد المتجلى ويروى لهم ما أصابه فسوف يتراجعون عن حماستهم وفرحهم.. والناس يكرهون الحكومة، ويجرون وراء كل ناعق حتى ولو قال ريان يا فجل».

أما أطفال القرية، فقد كانوا يجرون هنا وهناك، ويرددون أناشيد الكتاتيب والمدارس، وكأنهم في مهرجان «عيد الثورة» في الزمن الغابر، وكانوا يقولون:

- «عم عبد المتجلى سيروى لنا حكايات جديدة».

أما إمام السجد، فقد ابتسم فى وقار، ومسح على لحيته البيضاء، وانبعث من عينيه نور طاهر نقى، وقال:

- «ربّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره». . هكذا يقول المصطفى. . وأرى أن عبد المتجلى شاب نقى السريرة، صادق النية، صلب الإرادة، ويريد أن يحرك السكون، وينفخ الروح فى الموتى الأحياء. .».

ووقف الحاج «إسماعيل المغربى» بعد صلاة العصر أمام دكانه الصغير الخاص ببيع القماش، وحاول -دون حاجة أن يعدل من وضع عمامته الشاهقة البياض على رأسه الحليق، وقال:

- «الصوت القادم من البرية أزعج سكان القصور. . إن صمامات النفاق قد تدمرت فى قلبه. . ولهذا فإن أحاديثه الفتية تتدفق كالسيل العرم. . حقًا -كما قالوا- إنه يؤذن فى «مالطة». . لكن هناك من يسمعون ويعون. . لو عاش أبو زيد الهلالى فى زماننا هذا لما فعل أكثر مما فعله عبد المتجلى. .».

وهتف الحاج إسماعيل بأعلى صوته وكأنه فى تظاهرة انتخابية:

- «عاش عبد المتجلى.. عاش عبد المتجلى».

وكم كانت دهشته عندما تقاطر حوله الأطفال، وأخذوا يرددون الهتاف فى سعادة، وهو يكرر سعيدًا هتافه، والأطفال من ورائه، بل وبعض الرجال أيضًا، مما جعل زوجه تقف على عتبة الباب، وتقول فى حرج:

- «ماذا جرى يا حاج إسماعيل؟؟ هذا لا يليق».

(رمانة) أم عبد المتجلى كان كل اهتمامها منصبًا على إعداد مأدبة رائعة لولدها؛ لتعوضه عن أيام الجوع والحرمان فى الغربة وفى المعتقل، هى لا تفهم شيئًا يذكر عن السياسة والأوناش وجرائم الرأى وحالة الطوارئ المعلنة ومراكز القوى والقطط السمان، لكنها تهتم بالدرجة الأولى بوجود ابنها إلى جوارها، والاطمئنان على طعامه وشرابه، أما موضوع زواجه فقد أصبح لا يؤرقها؛ لأنه من شأنه هو،

فضلاً عن أنه لم يكبد الأسرة أية أعباء إضافية، وقالت (رمّانة) لابنتها كلامًا كثيراً حول سعادتها بعودته سالمًا، وقررت أنها سوف تلف ذراعيها حوله، وتتشبث به، ولن تتركه مرة أخرى ليقع فريسة الانتقام والغدر، وهى تؤكد أن ولدها عبد المتجلى لم يزل صغيراً، وأنه قليل الخبرة فى الحياة، وأن الشهادة التى نالها من المدرسة لا تعنى نضجه، فهم يعلمونه دروس الحساب والإملاء، لكنهم لا يعلمونه كيف يصبح رجلاً واعيًا فى هذه الدنيا الغدّارة . .

***

أصرت «أم صابرين» على أن تكون سيارة الأجرة التى ستنقلهم من القاهرة إلى القرية سيارة فخمة من نوع المرسيدس، وأن تزينها بالأعلام والأوراق الملونة، بل إنها اشترطت أيضًا أن يكون بالسيارة راديو مزود بتسجيلات كبار المطربين وخاصة ما يتعلق بالأفراح، لكن عبد المتجلى قال لها إنه يفضل القرآن بصوت الشيخ «محمد رفعت»، وإذا كانت هناك ضرورة ملحة فلا بأس

من تسجيلات الشيخ «النقشبندى»، ويمكن أيضًا سماع المطربة الشعبية «خضرة» وهى تشدو بملحمة «أيوب»، لكن السيارة الأنيقة عندما وصلت إلى مدخل البلد، كان صوت المغنى المرتجل «محمد طه» يشدو بأغنية «الليلة ليلة فرح».

وتجلى «عبد المتجلى» بعد خروجه من السيارة، كالقمر هكذا ظنوه.. كان شاحب الوجه، منبسط الأسارير، وأنهار السعادة تتدفق من عينيه، وكاد يغرق فى طوفان من الجماهير التى زحفت من الحقول والبيوت والوحدة المجمعة، وكان الضجيج يصم الآذان، والحماسة ترتسم على وجوه الفقراء المغبرة، والنسوة يزغردن، والأطفال ينشدون، ولم يدر عبد المتجلى من الذى انتشله من فوق الأرض، ورفعه عاليًا إلى الأعناق، كان مسحورًا بالمشهد الذى لم يخطر له على بال، فرفع يديه فى السماء والدموع تهطل من عينيه، ونادى بأعلى صوته:

- «الله أكبر.. الله أكبر».

فتردد صدى النداء القدسى الخالد نقيًا أبيًا شامخًا فى أجواء القرية الصغيرة كأحلى سيمفونية فى الوجود . .

وتمايلت الأشجار مع نسمة حانية، وكأنها توحد الله فى حلقة ذكر، ومدت الديكة والطيور والبهائم أعناقها وكأنها تستطلع ما يجرى، وحلقت الحمائم البيضاء فى السماء الصافية الزرقاء، ولكن لم يكن يأبه لذلك أحد، كانت الأنظار كلها متجهة إلى عبد المتجلى، وفى وسط هذا الفرح الصاخب انطلقت رصاصات ثلاثة، أخرست الألسن، ونشرت أجنحة الصمت الرمادية، وتلفت الناس، وكذلك عبد المتجلى، ترى ماذا جرى؟؟ وشق الصفوف موكب حضرة العمدة «الحاج إبراهيم صوان» يحيط به كوكبة من الخفراء المسلحين بالعصى والبنادق، ويلتحق بهم ثلاثة من الغرباء الذين لا يعرف عنهم أحد من أهل القرية شيئًا .

قال العمدة بصوته «البومى» :

- «يا أهل البلد . . هل نسيتم أن التجمهر ممنوع بنص القانون؟ إن أمن البلد فوق كل اعتبار . . والحكومة لا تسمح بهذه الفوضى . . وقانون الطوارئ موجود . . لقد أطلقنا الرصاص فى الهواء كتحذير . . ونحن على استعداد لأن نضرب فى «المليان» إذا . . لا شك أنكم فاهمون . . ورجال الأمن واقفون هنا إلى جوارى . . ولديهم أوامر صريحة . . الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها . . » .

ثم التفت إلى إمام المسجد وقال :

- «ألست معى فيما أقول يا شيخنا الجليل؟؟ . . وأنت يا حاج إسماعيل إن مثلك لا تغيب عنه هذه الأمور» .

ثم عاد يخاطب الجمهور مرة أخرى :

- «إنكم تجلبون الضرر لعبد المتجلى نفسه بهذه التصرفات . . فالحكومة قادرة على أن تعيده إلى المعتقل مرة أخرى إذا كان إطلاق سراحه يتعارض مع الأمن العام . . » .

ونظر عبد المتجلى حوله، تجمدت النظرات، وتقنعت الوجوه بأقنعة من السكون الغاضب، وأغلقت الأفواه، ونظر الأطفال فى خوف، لكن صدى التكبير ما زال يتردد فى الآفاق، إنهم يسمعون فى داخلهم، بل وفى آذانهم برغم الصمت، السيمفونية الإلهية لم تزل تعزف ألحانها القدسية.

رفع عبد المتجلى يمناه عاليًا، وقال وسط السكون:

- «أيها الناس.. الأفراح فى القلوب.. وألسنة الخلق أقلام الحق.. لقد كرمتمونى بأكثر مما أستحق.. والجزاء عند الله.. وأنا ضعيف عاجز عن الشكر.. فلننصرف احترامًا للأمن.. وللطوارئ..».

تمتم العمدة:

- «عين العقل..».

أما سائق التاكسى، فقد ضغط على زرار الراديو.

وانطلق صوت الشيخ محمد رفعت الملائكى يردد:

- ﴿طه ۝١ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى..﴾ [طه: ١، ٢].

كان الصوت الندى الرقراق عاليًا، وكان الغالبية من الناس يبكون.. لقد طغت الأحداث المثيرة، ونسى الناس «أم صابرين» التى ظلت قابعة فى مكانها متلفعة بشال وردى اللون، غطى رأسها ووجهها وكتفيها، وزادها تألقًا وجمالاً ومع ذلك فقد بدت محتشمة وقورة، وعندما عاد عبد المتجلى إلى مقعده فى السيارة وجدها تبتسم فى هدوء، وهمست:

- «إننى أغار منهم.. حبهم لك فاق كل حد».

ومضت السيارة بتوجيه من عبد المتجلى، حتى بلغت ناصية الحارة الضيقة الطويلة التى يستكن بيت أسرته فيها، ولم يكن فى الإمكان أن يجد السائق متسعًا لسيارته فى هذا الزقاق، وظهر عبد المتجلى وزوجه، بينما أخذ السائق يفك الأربطة والحبال حتى يحرر الحقائب والقفف الموضوعة فوق

الشبكة، وهرول الجيران من كل حدب، وكانت غالبيتهم من النساء والأطفال، وبينهم العجوز «رمانة» وابنتها، وانهمرت الزغاريد، وسمعت أم صابرين كلمات جميلة «مبروك يا عروسة. يا صلاة النبي.. يا حلاوة.. والله قمر يا جماعة قمر.. يا نهار السعد..».

وتزاحمت الأجسام، عشرات القبلات تفرقع على خد أم صابرين ورأسها، والأذرع تعتصرها وهى تحضنها وتعانقها، وكأن النسوة يعرفنها منذ عشرات السنين، شعرت أم صابرين بالارتياح والدفء والخجل، كل شيء يمضى بطريقة عفوية بسيطة جميلة، بعيدًا عن التصنع والرياء، وتشبث رمانة بولدها عبد المتجلى، خيل إليها أنه لم يزل طفلاً، تناسب شاربه ولحيته وعوده القوى التركيب، كان أضخم منها لكنها تصورته طفلاً رضيعًا بين يديها، كانت تبكى وتقول كلامًا كثيرًا غامضًا، لم يفهم الحاضرون والحاضرات سوى كلمتين «ولدى.. حبيبى».. أفاقت رمانة من حلمها أبعدت رأسها قليلاً وهى ممسكة كتفيه بيديها العجفاوين.. نظرت إليه

بإمعان . . كان بصرها ضعيفًا هرمًا . . ابتسمت والدموع في عينيها، ثم رمت برأسها فجأة على صدره الحنون، وأخذت تمرغها وكأنها تغسل تلك الرأس من الأحزان والهموم والأوهام في ينبوع الحب الطاهر . . قالت بسعادة :

- «حمدًا لله على سلامتك يا بك . . » .

ضحك عبد المتجلى فى شىء من السخرية :

- «بك؟؟ ما هذا يا أمى؟؟ بلا بك بلا قرف . . » .

- «ما فى بك أحسن منك . . » .

- «قولى يا باسط . . » .

والتفت عبد المتجلى إلى أم صابرين، وقال :

- «قبلى رأسها ويديها . . ثم ادخلى برجلك اليمنى . . » .

وتغنت النسوة بأغنية شعبية شائعة فى الأفراح . . كن يرددن :

هاتوا الذهب وكيلوا بالكيلة.

ما هش خسارة فى بياض الليلة..

هاتوا الدهب وشعترواع الأرضى

ما هش خسارة فى بياض العرضى

واحمر وجه أم «صابرين»، وابتسم عبد المتجلى حتى بدت نواجذه وقال فى مرح:

- «لا ذهب ولا فضة. . الحمد لله على الستر».

وأحضرت إحداهن «الطبلة الصغيرة» وأخذت تطبل عليها وتغنى:

- «إحنا «السوالمة» وكلامنا مشى

ونسيّب المحابيس من بيت البشى».

وقهقه عبد المتجلى وعلق:

- «انتهى زمن الباشاوات والألقاب. . نحن فى زمن جديد. . ولا داعى لذكر كلمة «محابيس» يا جماعة. . لأنه

يتنافى مع الإرشادات الأمنية . . كنت فقط فى ضيافة إخوة لنا . . وأكرمونى غاية الإكرام . . »

وفرشت الحصير، وجلست أم صابرين عليها إلى جوار عبد المتجلى من ناحية وأمه من ناحية أخرى، ولم تكد تمر بضع دقائق، حتى تدفق الخير، فقد أقبلت الجارات يحملن مددًا من صوانى الطعام، فيها ما لذ وطاب احتفاء بعبد المتجلى وزوجه التى قدمت البلد لأول مرة . . حمام محشو . . وديوك . . وبط . . وأرانب . . ما هذا كله . . صدق رسول الله ﷺ: «الخير فىّ، وفى أمتى إلى يوم القيامة..».

ومال على أذن أم صابرين هامسًا :

- «أترين هذا التأييد الشعبى الساحق؟؟» .

نظرت إلى عينيه محذرة، وقالت :

- «تذكر يا عبد المتجلى أنه لا كلام فى السياسة . . » .

- «البلد فيها حرية وديمقراطية وأحزاب معارضة» .

- «لم ينفعك أحد بشىء . . » .

- «إن ما يهمنى هو . . » .

قاطعته قائلة :

- «الأكل أولاً . . إنك لم تذق طعامًا منذ الصباح . . » .

●●●

فى اليوم التالى استدعاه حضرة العمدة، وحادثه برقة لم يألفها فيه، وشرح له كيف أنه قد ورث هذا المنصب عن آبائه وأجداده، وأن الأسرة طوال عشرات السنين قد بذلت الكثير من مالها ودمائها حتى تحتفظ بمنصب «العمدية»، وأن عبد المتجلى بتصرفاته السابقة قد أساء إلى وضع العمدة وجعله مثاراً للتهكم، والاتهام بالتسيب والضعف، وقال الحاج إبراهيم فى رجاء :

- «من أجلى يا عبد المتجلى . . ومن أجل شرف العائلة أرجو أن تغير من أسلوبك القديم . . » .

ولمّا لم يجب عبد المتجلى استطرد العمدة قائلاً:

- «إنك تعود خاوى الوفاض كما يقولون.. وليس معك «ونش» ولا غيره.. أرجو أن تدع هذه الأوهام والخزعبلات..».

توترت أعصاب عبد المتجلى عندما سمع كلمة «الونش»، حاول أن يكظم أساه، لكن الكلمات تدفقت على الرغم منه، كان يحاول جاهداً أن ينظمها وينقيها من ذرات النار التى شحنت الحروف، وقال عبد المتجلى:

- «إننى أحيا بالأمل.. وليس بالونش وحده يحيا الإنسان برغم أهميته.. إن أشياء كثيرة ضائعة يجب أن يبحث عنها الناس حتى يجدوها.. عندئذ سيجدون الونش.. هل تعلم شيئًا يا حضرة العمدة عن التلوث البيئى، وطبقة «الأوزون».. إن تلوث الهواء قد أحدث ثقبًا بالسماء.. ولهذا حدثت الفياضانات فى كل أنحاء العالم.. واهتاجت الأعاصير المدمرة.. وارتفعت درجة

الحرارة. . وسادت موجات الجفاف فى آسيا وأفريقيا. . لسوف يذوب الثلج فى المحيط المتجمد الجنوبى. . وستغرق الدنيا، ويفنى العالم. . . ».

نظر إليه العمدة في ذهول، واتسعت عيناه، وانتابه خوف شديد، يبدو أن عبد المتجلى قد أصابته لوثة جنون فعلية شديدة. . هذا المجنون لا يأمن جانبه، أيمكن أن ينقض على العمدة فجأة، ويغرز أصابعه فى عينيه ويقتلعهما من محجريهما؟ أم أنه قد ينشب أظافره فى عنقه ويعتصره اعتصاراً؟؟ وتلفت العمدة حوله، ولشدة دهشته وجد أن شيخ الخفراء والخفراء قد غادروا المجلس وهو يجلس الآن وحيداً مع عبد المتجلى، وسرعان ما صرخ فى هستيريا:

- «يا شيخ الخفر. . يا ثور. . ».

ابتسم عبد المتجلى فى هدوء، ورشف رشفة من فنجان القهوة، وقال:

- «إن قضية التلوث تشغل العالم كله الآن يا حضرة العمدة، وعندنا فى الدولة لجنة عليا لحماية البيئة، لكن للأسف العالم كله يخطئ فى فهم قضية التلوث.. إنهم يركزون على التلوث المادى الذى تسببه الغازات والكيماويات وغيرها، وينسون أهم تلوث..»

قال العمدة وكأنه يجاريه ويجامله:

- «ما هو يا عبد المتجلى؟».

- «التلوث الأخلاقى.. لو لم يكن هناك تلوث أخلاقى، لما وقعنا فى خطر التلوث البيئى..».

لم يكن العمدة حريصًا على أن يعى أو يفهم ما يقال، فقد كان المسيطر على فكره هو أن عبد المتجلى مجنون، وأنه قد يقدم على فعلة تقضى على حياته، وتنهد العمدة فى ارتياح عندما حضر شيخ الخفراء ومساعده، وفى أيديهم العصى الخيزران، اطمأن العمدة، ومدَّد ساقيه فى ثقة وهو ينظر إلى الخفراء وشيخهم، وقال:

- «هل سمعتم؟؟».

قهقه بصوت أجش مقيت، وقال:

- «عبد المتجلى يقول إنه حدث ثقب كبير فى السماء..».

اقترب شيخ الخفراء من حافة الشرفة، وصعد بصره إلى السماء، وأخذ يجوب بنظراته هنا وهناك، ثم قال:

- «أنا لا أرى شيئًا يا حضرة العمدة...».

وضحك الجميع، وقال:

- «لكن عبد المتجلى يراه..».

ثم التفت العمدة إلى عبد المتجلى الصامت، وقال:

- «طبقة الـ. الإيه يا عبد المتجلى؟؟».

- «الأوزون.. يا حضرة العمدة..».

وصافحه حضرة العمدة مودعًا، بعد أن أوصاه بالعديد من النصائح، ونهاه عن الاستغراق فى الأوهام

والخرافات، ولا داعى لأن يذكر موضوع الثقب -أو الخرم- الذى يزعم أنه موجود فى السماء، حتى لا يسخر الناس منه، وعليه أن يعود فى الصباح الباكر إلى عمله فى مجلس القرية، فقد أمر المحافظ أطال الله بقاءه بإلغاء الفصل الصادر فى حقه، وصرف جميع مرتباته الشهرية عن المدة المنصرمة، ومعها المكافآت والحوافز والعلاوات الدورية، وقد بشره حضرة العمدة بأنه سوف يكون ابتداءً من الغد مسئولاً عن المسرح ونشاطاته وكذلك صالة العرض السينمائى فى نادى الشباب بالقرية . .

الحقيقة أن عبد المتجلى شعر بشىء من الابتهاج؛ لأنه يحب المسرح فعلاً، وقال فى سخرية:

- «لن أتعب فى توفير الكوادر الفنية القادرة على التمثيل المتقن . . المواهب فى كل مكان . . البلد فيها تضخم وبطالة مقنعة فى فئة الممثلين . . هذا زمان التمثيل . . زمان الأقنعة يا حضرة العمدة . . ».

ثم صافحه عبد المتجلى ، ويمم وجهه شطر الباب ، وبعد خطوات التفت إلى العمدة قائلاً :

- «نسيت أن أخبرك أن زوجتى حامل . . وستلد . . » .

قال العمدة فى غير اكتراث :

- «مبروك . . خير خلف لخير سلف . . المهم ألا تحدث أحدًا عن ثقوب السماء . . شفاك الله وشفانا» .

فى ثالث يوم فوجىء عبد المتجلى بالأطفال يدقون عليه باب البيت فى الصباح ، وما إن فتح لهم حتى انفلتوا متزاحمين إلى الداخل ، وفى ثوان قليلة جلسوا القرفصاء على الحصير ، وقال كبيرهم :

- «يا عم عبد المتجلى جئنا إليك لتحكى لنا عن العصابة المجرمة التى ثقبت السماء . . » .

- «هل سمعتم بها؟» .

- «نعم . . » .

قالوها بصوت واحد منغم:

فهز رأسه، وابتسم وتجلى النور على وجهه، وقال:

- «حسنًا.. لسوف أحكى لكم عن كل شيء..».

فصفقوا وضحكوا وطربوا.. ثم أرهفوا آذانهم..

- «صلوا بنا على طه الرسول.. صلى الله عليه وسلم.. كان يا ما كان...».

نجيب الكيلانى

الإثنين فى ٦/٢/١٩٨٩

●●●